
روايات مصرية للجيب
61
ما وراء الطبيعة
أسطورة الشيء
د. أحمد خالد توفيق

# مقدمة

أحيانًا حينما ينتصف المساء ، ويصمت الصاخبون ، ويعزف الليل لحنه العتيد الذى لايسمعه سواى ، أجلس وحيدًا فى الشرفة .. وأقول لنفسى : لم تكن حياتك سيئة إلى الحد الذى تتظاهر به ..

لقد عشت خبرات ورأيت بلادًا عاش سواك وماتوا دون أن يعرفوها أو يحلموا بها ..

إن حياتك تكفى سبعين شخصًا ، فلماذا تشعر هذه الغصة فى حلقك ؟

السبب - بلامواربة - هو أننى أخاف القبر .. أخاف الظلمات والبرد والوحدة .. لكن القبر لم يعد بعيدًا على الإطلاق إن هى إلا خطوة واحدة ، وأعرف ما عرفه الملايين ممن سبقونى ، وعلى أن أتعايش - أو أتماوت - مع هذه الحقيقة ..

السبب الثانى - بلامواربة أيضًا - أننى تمنيت دومًا لو تقمصت حياة الآخرين .. أفرح لما يفرحون به وأحزن لما يحزنون له .. لكنى كنت دومًا الاستثناء الذى يثبت القاعدة .. لم أتحمل ما يتحملون فى أى يوم من حياتى .. هم الذين يتزوجون

وينجبون ويملئون الدنيا صخبًا ويعزون بعضهم ثم يموتون ..

لقد خلقت لعالم خاص بى .. ولم يؤنس وحشتى وتفردى إلا بعض أصدقاء ودودين .. فقط هم غريبو الأطوار نوعًا .. منهم من ينام ليله فى تابوت ، ومن يعوى عندما يكتمل القمر ، ومن يسيل كالماء لينساب من تحت الأبواب ، ومن يتآكل حيًا ..

أعرفهم واحدًا واحدًا .. كما يعرف الأب الفخور أبناءه ..

حسن ..

كفانا استطرادًا .. أعتقد أننى لن أشعر بتحسن ما لم أحك قصة أخرى ..

هل حكيت لكم أسطورة الشيء ؟ لا ؟ غريب هذا .. إنها جيدة وأعتقد أنها ستروق لكم ..

الطقس يبرد باستمرار .. لم أعد أرحب بالبرد كما كنت أفعل فى الماضى ..

هناك سبب آخر مهم هو هذا الخط الأحمر الباهت فى الأفق .. ربما لا ترونه لكن عينى المدربة - برغم وهنها - تراه



جيدًا ، وأنا أعرف أفضل من سواى معنى هذا الخط الباهت .. ربما أحكى لكم قصته يومًا ما ، لكن يكفى فى الوقت الحالى أن أقول إن الدخول من الشرفة سياسة حكيمة ..

والآن - لحظة حتى أغلق باب الشرفة - نسمع قصة الشيء ..

مرعبة ؟ لا أدرى .. أنا متأكد من أنها شنيعة ، لكن الفوارق بين الرعب والشناعة والهول والتوجس والتقزز كبيرة جدًا .. وبرغم هذا يخلط الجميع بين هذه المعانى ..

دعونا نصغ .. كفانا كلامًا عن القصة ولنسمع القصة نفسها ..

* * *

# 1 ـ مقدمة لابد منها لفهم القصة ..

صوت من البادية :

ـ « إنه ما زال يتحرك .. »

صوت فى الظلام :

ـ « هات فأسك وعاوننى .. »

صوت من البادية :

ـ « هلموا ! إنه لن يقهرنا جميعًا .. »

* * *

لأسباب يطول شرحها ، وجد (بكر الشناوى) نفسه يركض فى هذا الممر الطويل بين الأشجار ..

إنه الليل .. لك أن تتوقع هذا .. إنه القفر .. هذا مؤكد .. صوت الرجال آت من الخلف .. وهم بدورهم يحاولون ألا يحدثوا صخبًا ، لكن مهما كتم عشرة رجال أصواتهم فإن الضوضاء آتية لاريب ..

كان يركض .. محاولاً ألا ينظر إلى الوراء ..



صف الأشجار يتدافع يمينًا ويسارًا قادمًا من عالم خرافي لاتنفد أشجاره .. والعشب الندى تحت قدميه يحدث صوتًا غريبًا .. أنت تعرف ملمس ورائحة العشب الندى فى ليل الصيف ..

القمر مكتمل .. هذه هى القاعدة .. حين تكون مطاردًا ـ بفتح الراء ـ يسطع القمر كأنما هو يضىء خشبة مسرح ، بينما لو كنت مطاردًا ـ بكسر الراء ـ يتوارى القمر خلف السحب أو ينسى أنه موجود أصلاً ..

الألم يزحف ببطء من وراء عظمة القص ، ليشع فى الكتف اليسرى والذراع اليسرى .. والسبب معروف .. إن (بكر) فى الخامسة والأربعين .. السن التى تكف فيها الشرايين التاجية عن أداء عملها كما يجب .. لقد سدت مجراها آلاف الكيلوجرامات من الدهن والتبغ والهموم وليالى الإحباط ..

السبب الثانى هو أن الدم فى عروقه لم يعد كافيًا .. أنت ترى معى الدم الذى يحتشد على القميص .. لقد صار مبتلاً يلتصق بصدره ، لكنه لم يلحظ ذلك بعد .. كل المصابين بجرح خطير لا يلاحظون ذلك على الأرجح ..

لقد بدأ يشعر بذلك الشعور العجيب .. رأسه أخف من اللازم ، وثمة ثقل فى أفكاره .. الساقان اللينتان العصيتان على السيطرة ..

هذا الطريق .. (عفاف) .. سندات .. أشجار .. الرجال .. مخرج .. قادمون .. من هم القادمون ؟ لقد نسى .. لكن .. و(عفاف) أيضًا .. ما دخل (عفاف) فى الموضوع ؟ لا يذكر .. لكنه يواصل الركض ..

وخطر له خاطر مريع ..

هل أنا أموت ؟

استبعد الفكرة .. لقد قال له أبوه يومًا ما إن المحتضر يرى حياته كلها كشريط سينمائى لحظة الاحتضار ، وهو لا يرى شيئًا .. لم يبدأ العرض بعد .. كما قال له أبوه إن ..

ماذا قال ؟ ما دخل أبيه فى الأمر ؟

فقط هناك بقعة سوداء فى مركز الإبصار ، وهناك أطراف صفراء باهتة ..

البقعة تكبر ..

عرق بارد على جبينه .. على الأقل يشعر بهذا ..

هل أنا أموت ؟

لا .. على الأرجح لا .. لكن الاحتمال الأسوأ أن تفقد وعيك ، وهذا لا يختلف عن الموت كثيرًا ..



ألن تنتهى هذه الأشجار ؟ كل أشجار مصر والوطن العربى .. كل أشجار إفريقيا والأمريكتين .. أشجار سهول (التايجا) وغابات (الألب) .. أشجار الهند والسند .. كلها تراصت فى هذا الدرب الذى لا نهاية له ..

صوت الرجال يدنو أكثر ..

عشرة رجال يطاردون رجلاً جريحًا على وشك فقدان الوعى ..

لا يزيد الأمر على لعبة أطفال .. مسألة وقت كما يقولون ..

وهنا خطرت فى ذهنه الملبد بالغيوم فكرة واحدة .. من الحمق أن تظل فى هذا الطريق للأبد .. لتكن لك براعة الثعلب ولترزق حسن تصرفه ..

ثمة فرجة بين الأشجار .. لِمَ لا ؟

* * *

هنا يجب أن أقول إن (بكر) لم يلحظ شيئًا مهمًا ..

لماذا لم يلحق به الرجل وقد رأوه ؟ لماذا توقفوا حيث هم ؟

لماذا تبادلوا النظرات وتصلبوا فى أماكنهم ؟

أشياء كهذه تحدد مصيرك فيما بعد ، لكنك لاتفطن لها فى الوقت المناسب .. للإنصاف لنقل إنه لم يكن يملك أية قدرة على أن يفطن لها فى الوقت المناسب ..

لو كان (بكر) بكامل وعيه لتساءل ..

لربما شعر بالقلق ..

لربما أصابه التوتر .. لربما طار قلبه شعاعا لو رأى ما حدث بعد هذا ..

لقد فر الرجال فى الاتجاه المعاكس ، وهم لاينظرون إلى الوراء .

أشياء كهذه تثير الرعب لو فكرت فيها ، لكن (بكر) - لحسن حظه - لم يكن محتفظاً بكامل وعيه ..

* * *

اندفع بين شجرتين إلى جانب الطريق ..

هنا لم تعد هناك أرض تحت قدميه ..

كان هناك منحدراً وعراً .. وانزلقت قدمه .. ومع القدم سقط



جسده .. تدحرج عدة مرات ، وكما هى العادة مزقت الأشواك وجهه وراحتيه .. لا بد أن هناك الكثير من الوحل ، ونباتات عجيبة مزقها ، على كل حال لم يعد من داع لمعرفة اسمها ..

وفى النهاية تكوم على أرض صلبة .. وراح صدره يعلو ويهبط ..

دامت الإغماءة ثلاث دقائق ، لكنه شعر كأنها دهر ..

فقط أفاق للحظات ، وكانت هذه اللحظات كافية كى يتبين أين هو ..

المقابر الساكنة ترقد ناعسة فى ضوء القمر .. عشرات الشواهد تنتثر هنا وهناك .. كلمات بخط ساذج بالطبشور على كل شاهد .. على بعد أمتار قبر صنع شاهده من طين لين ، وقد كتب عليه بتلك اليد الطفولية : كل نفس ذائقة الموت - قبر المرحوم (عبد السلام أحمد شرشيرة) - توفى يوم 10 شوال 1382 هجرية .. لايعرف الاسم لكنه يبدو مناسباً لمتوف بشدة .. هناك أسماء وصور خلقت كى يموت أصحابها ، حتى لتشعر بأنهم لم يعيشوا يوماً واحداً ..

هنا قبر .. هناك قبر .. عشرات المقابر تمتد على مرمى البصر ..

لكن لو كان (بكر) واعيًا لما يدور حوله، لألقى سؤالاً مهماً: لماذا تركت المساحة التي سقط فيها خالية من المقابر؟ بالأحرى لم يكن فيها إلا قبر واحد ..

كان هناك كلب من كلاب المقابر .. كلها أسود مشعث كئيب هو خليط من ذئب تعس وضبع .. هذا الكلب يجوب المكان في عجلة باحثًا عن فريسة ما .. فجأة يتوقف .. يرى المساحة الخالية التي سقط فيها (بكر) .. يتصلب .. ينتصب الشعر على جسده، يزوم في غضب - أم في رعب؟ - ثم يتراجع وهو لا يبعد عينيه الناريتين ..

(بكر) لم ير هذا الكلب، ولو رآه لارتجف رعبًا .. لا من الكلب بل من رعب الكلب ..

لقد رفع (بكر) رأسه .. وعرف أين هو .. لكن المقابر في هذه المرة لم توح بالموت، بل أوحت له بالنجاة .. إنه بعيد عن مطارديه .. سوف يستجمع قواه .. فقط يريد دقائق أخرى من الـ ...

من السبات حيث هو ..

* * *

الدماء كانت تسيل بلا توقف ..



لو ترك وشأنه حيث هو لفاضت الحياة من عروقه خلال ساعتين ..

كانت الطعنة نافذة، وقد هتكت الرئة اليسرى .. لكن (بكر) لا يعرف هذا لحسن حظه ..

الدماء بدأت تتجمع على التربة .. بدأت تتخلل طبقات التربة ..

ثم راحت قطرات من السائل الداكن تصل إلى الأعماق ..

إلى الشيء الراقد في القبر ..

من بين كل المواضع في القرية، ثمة أحمق لم يختر سوى هذا المكان كي يفقد الوعي فيه .. ومن بين كل النشاطات الفسيولوجية لم يجد نشاطًا أفضل من النزف ..

يمكننا الآن أن نرى بعين الخيال كيف بدأ ذلك الشيء يتحرك .. لقد شعر بالمذاق المميز الصدئ قليلا .. عرفه على الفور بعد كل هذه الأعوام .. بدأ يفور .. يرتج ..

الآن هناك أشياء تشبه الأهداب تخرج منه .. تتسلل بين ثنيات التربة .. لا أعرف الكثير عن ميكانيكا التربة، لكن هناك نوعًا من الخلخلة يتم بقوة ..

تشق الأهداب طريقها إلى السطح ..

لقد شعر بقرب الجسد ..

الآن لم تعد قوة على الأرض قادرة على إيقاظ هذا النائم الذى لا يعرف ما يحل به ..

ها هى ذى الأهداب استطالت حتى صارت أقرب إلى مجسات الإخطبوط .. إنها تتسلل .. تتحسس الجسد الراقد فوق القبر .. تشعر به .. تمتص قطرات الدم التى تبلل التربة ، ثم تتحسس الوجه .. إنها تفتش عن هدف محدد .. فتحتا الأنف .. أين هما ؟

هاهى ذى الأهداب قد وجدت طريقها إلى الأنف .. إنها تخترقه ..

لو رأيت المشهد فلن تفهمه .. فقط سيخيل إليك أن طاقتى أنف الرجل فاقد الوعى يخرج منهما سائل هلامى غريب .. الحقيقة أننا نتحدث عن الدخول لا الخروج ..

الآن لا بد أن الأهداب اخترقت العظام الشبيهة بالمصفاة ethmoid التى تفصل الأنف عن قاع المخ .. ما الذى يجرى هناك ؟ لا أحد يعرف ..

ليس بيدنا أن نفعل شيئاً .. إن الرجل لن يسمع صراخنا .. لهذا نتراجع بالكاميرا ـ على طريقة ( هتشكوك Hitchcock ) الشهيرة ـ إلى الوراء .. إلى الوراء ..

إلى مكان آمن بعيداً عن هذا كله ..

وننتظر ...

* * *

## 2ـ مقدمة لابد منها لفهم القصة ..

صوت من الظلام :

ـ «إنه يتحرك من جديد .. أى شيطان هذا ؟»

صوت مبحوح :

ـ «فلنحاول مرة أخرى .. لن نفقد إلا حياتنا ..»

صوت من البادية :

ـ «قد نفقد ما هو أكثر ..»

* * *

( بكر ) يبدأ يوماً جديداً ..

حينما يدق جرس المنبه ، وحينما ينقطع خيط الحلم بمقص الرقيب ، وحينما يخترق الرنين خلايا مخك لينفض خلية خلية ، عندها تتمنى لو أنك تحلم .. لكنها الحقيقة ..

يبقى فى الفراش بضع دقائق .. تدخل زوجته لتكرر من جديد :

ـ «( بكر ) ! أنت طلبت ألا أتركك نائماً ..»

لأنها تعرف أنه يغلق المنبه أكثر من خمس مرات ، بعد ما يعيد ضبطه فى كل مرة .. لهذا تتحول مواعيد الثامنة صباحاً إلى العاشرة ..

لماذا يبدو صوتها أخنف غريبًا في هذه الساعة من الصباح ؟ لقد قاطعت حلمًا ثانيًا ..

ينهض .. يتربع في الفراش يتأمل أصابع قدميه ، ثم يترنح نحو الحمام ..

نفس الوجه يرمقه في المرآة .. ذات الوجه ولم يستجد شيء .. إنه في الخامسة والأربعين ، لكن وجهه من الطراز الذي لايشيخ أبدًا .. ما زالت تلك النظرة الصبيانية العابثة قليلًا من عينين راغبتين في المرح .. صحيح أن مقدمة شعره تتراجع للخلف أكثر فأكثر ، وأن أثر العام الماضي ترك علامات لاتخطئها العين ، لكن وجهه في النهاية هو وجهه .. سوف تندهش لو قيل لك إنه في هذه السن ..

الزوجة تتأهب للخروج .. تحمل حذاءيها لتلبسهما على الباب كما اعتادت ..

تقف على باب الحمام ، وتقول له متعجلة :

«سأعود في الثانية لو وجدت مواصلات .. لاتنس (دينا) في المدرسة .. سلام .. »

وتتساءل في سرها : ما الذي يرغم إنسانًا على الاستيقاظ في ساعة مبكرة كهذه إذا لم يكن مرتبطًا بعمل ؟ لو كان الأمر بيدها لظلت في الفراش حتى منتصف النهار ، لكن من المجنون الذي يزعم أنه فهم (بكر) ؟



يسمع باب الشقة ينفتح ثم يغلق ..

هو الآن وحده ..

روتين الحياة المعتاد منذ عام .. منذ طرد من عمله أو تركه .. منذ أقيل أو استقال .. لايهم .. هذه ألفاظ نختارها كي لايبدو موقفنا محرجًا أمام الآخرين .. كل ما يعرفه هو أن الأوضاع تبدلت من حينها .. أكثر الوقت هو في البيت وهي في العمل .. وقف أمام المرآة ونزع منامته ..

الجرح ما زال على صدره .. ندبة قبيحة لايمكنك أن تتأملها مستريحًا ، ليست طويلة لكنها بالتأكيد غائرة .. وهو لايعرف لماذا ولا كيف شفيت ..

ربما في جسده قدرات يجهل عنها كل شيء عنها .. إنه يسمع عن نجمة البحر التي يبتر لها طرف فتستكمله ، وعن السحلية التي تستنبت ذيلًا جديدًا .. فهل لديه نوع من هذه القدرات الكامنة ؟

* * *

الظلام والبرد .. رباه ! كل هذا الظلام ، كل هذا البرد !

كيف جئت هنا ؟ ماذا أتى بي ؟ ماذا حدث ؟

ثم أدرك أنه وسط المقابر ، ومن جديد رأى شاهد القبر في ضوء القمر ، وعليه الكتابة بخط طفولي (عبد السلام أحمد شرشيرة) ـ توفي يوم 10 شوال 1382 هجرية .. استعاد الشعور القديم حين يرى ذات اللقطة في حلقة الفيلم الثانية .. لقد جئت في هذا الجزء ..

الآن وقد عرف أين هو ، راح يتحسس قميصه .. دماء ! دماء رطبة .. أنا جريح ! كيف لم أفطن لهذا ؟

لكن الجرح لا ينزف .. لا يوجد جرح على الإطلاق تحت القميص ، فهل هذا الدم دمه أم لا ؟

المقابر ! الآن صار على استعداد لأن يشعر بالخوف .. كان الخوف من الموتى ترفًا لا يملكه منذ ساعات ، لكنه الآن من حقه .. أن يجد المرء نفسه وحيدًا فى المقابر ليلاً .. ليس هذا أجمل شعور فى العالم ..

نهض وحاول أن يدور حول الساحة المرعبة ..

يبتعد .. ينظر إلى الأفق ..

هذا اللون الأرجوانى هناك .. ليس هذا هو الشفق القطبى Aurora لسبب بسيط هو أننا لسنا فى ( النرويج ) .. هذا هو الشرق ، والنهار آت لا ريب فيه ..

يبدو أن معاناته قد انتهت ..

فيما بعد سوف يلقى أسئلة وسوف يعرف السبب فى مجيئه هنا وما جرى له ، أما الآن فعليه أن ينعم بالمسير فى النور ودفء الشمس ، وقد كاد ينساهما ..

* * *



على مائدة الطعام جلس يتناول إفطاره ..

إنه ذلك النهم غير المفهوم .. يأكل كأنما هذه آخر أكلة فى حياته .. ولسبب ما لم يزدد فى الوزن قط .. زوجته لاحظت هذا أكثر من مرة ، وفسرت الأمر فى سرها بأنه اضطراب عاطفى لرجل يلعب دور العاطل برغم إرادته ..

وكانت زوجته ( عفاف ) نموذجًا فريدًا من نوعه .. المرأة التى تشعر طيلة الوقت بأن هناك خدعة ما .. الآخرون يحاولون خداعها .. كل الباعة لصوص وكل طارقى الباب نصابون .. وكل الأفلام مشينة وكل المسلسلات تافهة ، وكل الكتب لا تقول شيئًا .. كل الزوجات الأخريات سافلات وكل الأزواج خائنون .. كل أصدقائه أوغاد وكل صديقاتها ثرثارات .. الخلاصة أنها وصلت إلى السلام بشكل تام مع كل غوامض الكون .. كل شىء أسوأ ما يمكن أو تكمن وراءه خدعة ما ..

وكانت عبارتها الخالدة هى :

- « لم يعد الناس كما كانوا .. »

لا تعرف أبدًا متى كان الناس ( كما كانوا ) .. فلابد أنها كانت تعيش فى العصر الباليوزى Paleozoic ، حين كان الناس على خلق ولا يخدعون أحدًا .. لسبب بسيط هو أنه لم يكن هناك ناس فى ذلك العصر ..

لهذا ـ حينما لاحظت نهمه الشديد للطعام ـ ظلت تنظر له فى شك باحثة عن خدعة ما .. قالت فى ريبة :

ـ «أراهن على أنك ... »

وبحثت عن تهمة معينة تلصقها به فلم تجد .. هل النهم فى الطعام تهمة يعاقب عليها القانون ؟ هكذا فضلت الصمت ثم قررت أن الأمر لايتعدى اضطرابًا نفسيًا ما ..

أما هو فلم يكن يعرف جوابًا لهذا .. لكن الطعام أضاف لحياته لذة بريئة لاشك فيها .. قصة حب انعقدت بينه وكل طبق فول وكل بيضة مسلوقة وكل قطعة لحم يجدها أمامه .. صحيح أن نوعية الطعام ـ بعد عام من البطالة ـ سوف تتدنى .. لكن كان لديه فى المصرف رصيد لابأس به ، وقد صمم على ألا تتجاوز مصاريف البيت مائة جنيه شهريًا بأى ثمن ، وهو مبلغ جسيم بمقاييس تلك الأيام .. معنى هذا أن أمامه وقتًا لابأس به قبل أن تنفد مدخراته ، وهى لحظة يحاول عدم التفكير فيها ..

لقد قسم فى ذهنه ما لديه فى المصرف إلى حزم تتكون كل حزمة من مائة جنيه ، ورسمها على شكل خطوط على جدار الشرفة .. فى نهاية كل شهر كان يدخل الشرفة ويشطب أحد الخطوط .. محاولاً ألا يعد الخطوط الباقية ..



هكذا فتح الجريدة ، وراح يجرى بعينيه على العناوين ، بينما هو لايكف عن تقليب طبق الفول باللقمة التى بين أصابعه ، «كل الجرائد ما بها شىء جديد » .. قالها ( نزار قبانى ) وهو قول صادق فعلاً ..

من أين جاء بالمال ؟ لايذكر ولايعرف .. لم يكن ثريًا ولم يدخر مليمًا من راتبه فى شركة التأمين حين كان يعمل بها .. لكنه فطن فجأة إلى أن لديه حسابًا فى المصرف وأنه الشىء الوحيد الذى يجعله لايعيش عالة على زوجته .. مازالت قطع اللحم وأرغفة الخبز على المائدة من جيبه هو .. بينما راتبها لايكفى إلا مواصلاتها ..

من العسير أن تبدأ كل شىء من الصفر فى سن الخامسة والأربعين ، لكنها الحقيقة ..

ولت حماسة الشباب وقوة الشباب .. ولم تأت حكمة الكهولة ولا استقرارها المادى ..

رباه ! إنه فى مأزق ..

* * *

لماذا لم يجد عملاً طيلة هذه الفترة ؟

الأمر يندرج تحت مقولتين شهيرتين :

الأولى هى بيت شعر عبقرى شرح فيه شاعر عربى قبيح

لوجه السبب الذي جعله يحجم عن الزواج حتى تقدم به السن (فأما الحسان فيأبينني .. وأما القباح فآبى أنا) .. شركات التأمين القوية حسنة السمعة لا تقبل به ، وشركات التأمين الحقيرة ذات السمعة الملوثة لايقبل هو بها بعد هذا العمر ..

المقولة الثانية قالها (جروشو ماركس Groucho Marx) الممثل الكوميدى الأمريكى الشهير : أنا أرفض الانضمام لجمعية تقبل مثلى عضواً فيها !

هو ليس بارعًا وليس حسن السمعة إلى هذا الحد .. وطرده من الشركة لايخلو من اتهامات مسيئة لشرفه المالى .. شركة التأمين التى تقبله مع هذه السمعة ـ لا توجد أسرار فى عالم شركات التأمين ـ لن تكون أبدًا شركة راقية أو محترمة أو ناجحة .. وهو يأبى أن يعمل فى شركة غير راقية أو محترمة أو ناجحة !

الخلاصة : سيبقى كما هو حتى إشعار آخر ..

بحذر جرب بعض النشاطات فى العام الماضى : تجارة الماشية .. تجارة ( الشنطة ) التى كانت رائجة فى السبعينات .. مشروع صغير للشطائر .. وفى النهاية تعلم الدرس غاليًا : هذه نشاطات لايمكن تعلمها متأخرًا ، ولاتوجد مدارس تلقنها .. إنها كالشعر والموسيقا .. إما أن تولد تاجرًا وإلا لن تكونه أبدًا ..



الخلاصة : سيبقى كما هو حتى إشعار آخر ..

فى هذه اللحظة شعر ـ وهو يلوك لقمة جافة بعض الشىء ـ بألم عابر .. مد يده إلى فمه وتحسس .. يقول الإنجليز : السماء لاتمطر أبدًا بل تصب السيول .. ويقول العرب : المصائب لاتأتى فرادى .. لقد فقد سنًا مهمّة من أسنانه ..

فتح كفه وراح ينظر إلى السن الدامية .. وتذكر الطقوس التى كانت أمه تمارسها فى طفولته فى ظروف مماثلة ، و ( ياشمس يا شموسة .. خدى سنة الـ .. ) .. وما بعد ( الـ .. ) هذه كان يتوقف على مزاج أمه .. أحيانًا كان هو ( الحمار ) وأحيانًا ( الثور ) وأحيانًا ( الجاموسة ) ..

لسبب ما شعر بحنين طفولى دفعه إلى أن ينهض ويتجه إلى الحمام .. الصيدلية العتيقة التى تحولت إلى أى شىء لا علاقة له بالدواء .. مخزن كرار يحوى خيوطًا ودبابيس وجوارب قديمة وأنابيب معجون أسنان فارغة .. فتح علبة فارغة وأسقط فيها السن ، وتأمل وجهه فى المرآة وابتسم ..

* * *

## 3- مقدمة لابد منها لفهم القصة ..

يجب أن نكون عادلين ..

قد يحلو لبعضكم أن يعتقد أن (بكر) كان يعرف الحقيقة من وقت طويل، لكن الحقيقة هي أنه لم يتبين الأمر إلا بعد شهر وبعد ما فقد سناً أخرى ..

إن فقد سنين في شهر واحد أمر غريب، وقد أخلد للنوم في تلك الليلة وهو يفكر في الأمر ..

إنه يقف هناك وحيداً .. هناك تابوت مفتوح، وهناك من يقول له أن يرقد فيه .. من يقول ؟ لايعرف لكنه يفهم الأمر جيداً .. يتمدد في التابوت لكنه يشعر خوفاً .. هناك جراحة غريبة تجرى على جسده .. جراحة في تابوت ؟ لايعرف السبب .. يبدو أن هذا يجعل الأمور أسهل في حالة فشلها .. لن يكون هناك نقل إلى المشرحة وإجراءات معقدة .. (سعد زغلول) بشاربه الشهير وطربوشه يقف هناك ويقول شيئاً عن الجراحات الفاشلة .. (ماوتسي تونج) يوافق في ضيق .. وعن بعد تتحرك السفينة (المحروسة) حاملة الملك (فاروق) إلى منفاه، فلايعترض (بشارة واكيم) على شيء .. هذا غريب ..



يخرجون شيئاً غريباً من بطنه .. شيئاً ينبض .. يتشعب .. إنه يصرخ، يحاول أن يمنعهم لكنهم يغلقون التابوت .. ويفهم أن الجراحة فشلت وأنه مات .. الظلام يسود المكان ..

ثم .. صحا غارقاً في العرق .. بعض الوقت حتى فهم إنه هنا وأن هذا كابوس .. لم يكن خبيراً في تفسير الأحلام، لكنه عرف على الفور أن الكابوس يفصح عن شيئين : رعب التحلل الجسدي .. لقد نام وهو يفكر في أسنانه المفقودة ورعب السرطان .. هذا الذي أخرجوه من جسده لايمكن أن يرمز لشيء إلا للسرطان ..

- «هل أنت بخير ؟»

قالتها الزوجة بصوت ناعس دون أن تستدير في رقدتها ودون أن ترفع رأسها عن الوسادة، فقال لاهثاً :

- «كابوس .. » .

- «نصحتك ألاتأكل لحم الضأن في العشاء .. هل سمعت من قبل عن رجل عاقل يأكل الضأن في العشاء أو أي وقت ؟»

الحقيقة أن العشاء التقليدي المكون من الجبن أو البيض لم يعد يكفي لإشباع جوعه .. إن احتياجاته الغذائية تتزايد بلاتوقف .. وفي هذه الليلة بحث عن شيء مناسب في

الثلاجة فوجد بقايا الغداء .. صينية من البطاطس مع لحم الضأن .. لقد استمتع بوقته ، لكنه يدفع الثمن غاليًا كأية لذة فى الحياة ..

نهض من الفراش شاعرًا بذلك الشعور الممض .. مثانة مليئة وعطش قاتل وعرق يتخلل كل شىء ..

- « إلى أين ؟ »

- « الحمام .. المطبخ .. ربما الشرفة .. »

دخل الحمام فتخلص من العذاب الوقتى ، ثم اتجه إلى الحوض يغسل وجهه وهو يتأمله فى المرآة ..

هنا خطر له أن يفتح الصينية فيلقى نظرة على السنتين .. لقد ألقى السن الأخيرة دون أن ينظر داخل العلبة ، وقد خطر له أن ينظر إلى هذه الأجزاء التى فقدها للأبد ..

غريب هذا ..

إن السن القديمة التى فقدها أثناء الإفطار لم تعد سنًا ..

إنها أقرب إلى جسم زغبى بحجم إصبع اليد .. بمزيد من التدقيق أدرك أن السن موجودة ، لكنها كبرت فى الحجم ، وبرزت منها شعيرات رقيقة شفافة فى كل اتجاه كأنها تحولت إلى فرشاة ..



لم يفهم .. شعر باشمئزاز ودهشة ، ثم قال لنفسه :

« فطريات .. لابد أن بعض الفطريات نمت عليها .. »

لكنه كان يعرف ما هو أفضل ..

الفطريات لا تجعل السن تنمو .. ثم من سمع عن سن أصيبت بفطريات ؟

خطر له أن يتخلص منها ، ثم فضل أن يتركها ويعود للنوم ..

هذه المرة لم يزره (ماوتسى تونج) أو الملك (فاروق) ..

كان نومًا هادئًا حتى دوى صوت المنبه ..

* * *

لماذا يحرص على الاستيقاظ مبكرًا ؟

لا يعرف .. هى عادة قديمة منذ كان يذهب للعمل صباحًا ، واليوم ظلت نفس العادة معه ، لكنه كان يحب شيئًا آخر .. أن يتلذذ بتلك الساعات التى يبقى فيها وحده فى البيت .. (دينا) فى المدرسة و(عفاف) فى العمل .. البيت كله ملكه الخاص .. يصغى للمذياع .. يرقد فى الصالة .. يفتح جهاز التلفزيون .. يقرأ الجريدة .. يكلم نفسه بصوت عال ، لا أحد يلومه أو يتهمه بالخبال ..

وفى الواحدة بعد الظهر يخرج ليأتى بالطفلة من المدرسة ..

إن يومه الحقيقى يبدأ بعد نوم العصر .. هنا فقط يخرج ليزور صديقًا أو اثنين .. يبحث عن عمل جديد .. ثم يعود للبيت فى العاشرة مساء ليتناول العشاء ويشاهد التلفزيون بعض الوقت، بينما تصر زوجته على أن (التلفزيون لم يعد كما كان) كأن (مصر) تعرف التلفزيون من القرن الثامن عشر ..

هكذا بدأ يومه كالعادة بالإفطار ..

شعر بذلك الألم الممض فدخل الحمام .. كان من محترفى تمرير حصوات الكلى Stone passers ويعرف جيدًا تلك الأعراض، حين تجد حصوة صغيرة طريقها إلى المثانة توطئة لأن تغادر جسده .. كان يعرف هذه الأعراض وقد توقعها منذ أسبوع .. إنها تلك اللذة التى تعقب الألم أو الألم الذى تعرف أن بعده لذة .. لذة الخلاص ..

هكذا تناول الحصوة المتكلسة .. كانت فى حجم حبة الفول شديدة الخشونة .. النشوة الحقيقية تأتى من تصور أن هذا الشىء المريع كان فى جسدك وقد خرج منه ..

يعرف بقية القصة .. سوف يعانى بعض الآلام فى التبول وربما ترتفع حرارته قليلاً فى المساء .. حتى علاج هذا يعرفه .. بعض الأسبرين وأقراص السلفا .. وسوف ينتهى الأمر سريعًا ..

حمل الحصوة إلى الصيدلية ووضعها فى العلبة التى تحتوى على بقاياه .. إنها العاشرة فى حياته ..



وهو إنجاز بالنسبة لرجل فى الخامسة والأربعين من العمر ..

ولكن ..

لحظة من فضلك !

السن الأخرى التى فقدها أمس قد أصابتها ذات الأعراض واكتست بذات الزغب !

ماذا يحدث هنا ؟

شعر بدوار، لا بد أنه مصاب بمرض عضال لا يعرف كنهه .. لا يوجد تفسير آخر .. السرطان .. لقد حلم به .. لاشك فى هذا .. فلابد أن عقله الباطن يعرف عن جسده ما هو أكثر ..

* * *

مر شهر آخر ..

لقد وجد (بكر) عملاً كمحاسب فى شركة يملكها أحد أصدقائه .. ليس هذا بالعمل الممتع أو المجزى .. ليس

بالعمل الذى تنتظره عاماً كاملاً ، لكنه كان بحاجة إلى أن يبتعد عن ذاته بعض الوقت .. الوحدة والهواجس كلها تعذبه ، فما أن ينغلق عليه باب الشقة وحده ، حتى يصحو ذلك الغول الذى يلتهم أعصابه ..

أشياء كثيرة تغيرت فى ذلك الشهر .. عرف أشياء كثيرة لكن علامات الاستفهام تزايدت .. كتب ( الميتافيزيقا Metaphysics ) تخبرك بأشياء كثيرة ، عن العلامات التى يجدونها على القبور وآثار الأقدام القادمة من الفضاء وجلسات تحضير الأرواح ، ولكن ما الذى تخرج به فى النهاية ؟ لاشىء .. المزيد من الأسئلة .. «هناك أمور غريبة تحدث» .. هذا هو كل شىء ..

لقد عرف ( بكر ) الكثير لكنه لم يعرف شيئاً على الإطلاق ، ولم يظفر بتفسير مريح ..

فقط قال له الأطباء ـ الذين لم يروا كل شىء ـ إن جسده سليم .. لا أحد يضمن له ألا يصاب بالسرطان غداً ، لكنه الآن .. فى هذه اللحظة بعينها .. خال من أى سرطان فى جسده ..

كان يخشى أن يتسلق إلى تلك ( الصندرة ) الصغيرة فوق



الحمام .. والسبب هو أنه نقل إليها محتويات الصيدلية حين صار السر غير قابل للكتمان أكثر من هذا .. لكنه اليوم تجاسر وتسلق إلى هناك ..

ورأى ..

هكذا قرر أن الوقت قد حان كى ينقل هذه الأشياء بعيداً .. والحل سهل نوعاً .. إن جاره القديم قد انتقل ليعيش فى مدينة ( نصر ) ، وهو يرغب فى أن يبيع شقته .. هناك سماسرة كثيرون يعرفون المكان ، لهذا ترك معه مفتاح الشقة كى يفتحها لمن يريد رؤيتها فى أى وقت ، وهو ما لم يكن يحدث كثيراً .. هذه مسألة ثقة نمت بين الجارين مع الوقت ، وإن كانت ( عفاف ) تؤمن أن فى الأمر مكيدة ما .. لا أحد فى هذا الزمن يترك مفتاح شقته مع جاره .. وقد حاول إقناعها بأنه لو كانت هناك مكيدة ما ، فهو ـ ( بكر ) ـ الجدير بها .. يمكنه أن يستولى على الشقة إذا شاء .. إن جاره أسلمه عنقه ببساطة .. لكن الزوجة كانت متأكدة من أن زوجها أحمق وجارها وغد والسماسرة نصابون .. وأن لعبة قذرة تدور هنالك ..

ـ « أنت تتصرف مع كل الناس بحسن نية ، ولن تلبث أن تدفع الثمن غاليًا .. »

ثم تمصمص بشفتيها متصعبة وتقول :

« أمي قالت لي إنك تبدو أحمق ، ولم أصدقها .. ألا رحمها الله .. لابد أنها تنظر إلينا الآن ساخرة .. »

كان الوقت قد فات لإفهام هذه المرأة أن الناس لديهم مشاغل أخرى غير خداعها ..

المهم أن أوان الاستفادة من هذه الشقة قد حان ، لذا انتهز فرصة ذهابها للعمل ، وفتح باب الشقة ونقل إليها كل تلك الأشياء الرهيبة في ( الصندرة ) ..

كان يعرف أن أوان التصرف وحيدًا قد فات .. أوان الاستعانة بالأصدقاء قد فات ..

يجب أن يجد من يفهم هذه الأمور .. يجد شخصًا يصغي ولا يسخر .. وربما يساعد ..

كان هذا حين جلس جوار المذياع ذات ليلة فسمع حلقة من برنامج ( بعد منتصف الليل ) ..



ثم ضيف الحلقة الدائم هو ( رفعت ) .. ( رفعت إسماعيل ) .. إنه طبيب ذو خبرة بعالم ما وراء الطبيعة ، وهو بهذا يجمع بين الطب والميتافيزيقا .. وهما وجهان لمشكلة ( بكر ) الحالية ..

على هامش جريدة وجدها أمامه دون أرقام الهاتف ..

ترى ماذا يملكه العجوز ( رفعت إسماعيل ) كي يقدمه ؟

* * *

# 4 ـ مقدمة لابد منها لفهم القصة ..

بدأ دورى فى القصة فى نهار ربيعى كئيب .. أنتم تعرفون تأثير الربيع على أعصابى ، وتعرفون أننى كنت أقضى الوقت الذى يتبادل فيه العشاق الغزل ، فى وضع قطرتى العين والأنف .. لأن كل حبوب اللقاح فى الجو تحيل جهازى المناعى إلى مستشفى مجانين ..

كنت فى المستشفى وقد فرغت من جولة العنابر إياها .. وجلست أحاول أن أسدد القطارة إلى عينى .. ربما لهذا يتزوج الناس كى يجدوا شخصًا آخر يضع لهم قطرة العين .. أستعين بطبيب شاب ؟ لا أدرى .. ما زلت أجد أن علاقة الرئيس بالمرءوس ستكون غريبة نوعًا لو تضمنت وضع القطرة فى العين ..

سمعت دقات على الباب .. ثم دخل (بكر) .. لقد وصفته من قبل فلن أزيد على ما قلت إلا أنه يبدو فى أسوأ حال ممكن ..

ـ « د . (رفعت) ؟ كنت قد اتصلت بك أمس .. »

هكذا وجدت فرصة سانحة .. أكره تحطيم حدود الكلفة إلى هذا الحد ، لكنى فشلت فى اقتناص عينى مفتوحة ،



وكنت على استعداد لأى شىء .. لهذا طلبت منه أن يضع لى قطرتين فى كل عين ..

كما تتوقع لم يدر ما يقول أو يفعل .. كان محرجًا بشدة وراحت يده ترتجف ، حتى كاد يفقأ عينى .. أخيرًا نجح وسال السائل البارد يغمر كرتى عينى وتسلل إلى أنفى .. أخرجت منديلى ورحت أتمخط بحرية واستمتاع ..

فى النهاية أدركت أننى وضعت على جهازه العصبى ما لا يطيق فدعوته إلى الجلوس ..

قال لى فى حرص وهو يتحاشى عينى :

ـ « لا أعرف إن كان بوسعك أن تساعدنى ، لكن الكتمان فى حد ذاته مرهق .. لعل الكلام نصف العلاج كما يقولون .. »

قلت له وأنا أتفحصه بعناية :

« من هذه الناحية كن مطمئنًا .. إننى أذنان تمشيان على قدمين .. »

هكذا راح يحكى لى قصته وهو يحك أرنبة أنفه ..

كان الجزء الذى بدأ به هو منذ عاد إلى داره .. أى أنه لم يحك لى شيئًا عن قصة فقدان الوعى فى المقابر .. وهكذا بدا لى ما يعانيه كأنما جاء من سماء صافية ..

كان فى حالة رعب ولا ألومه كثيراً .. كما قيل على لسان المخرج الكندى (كرونتبرج Kronenberg) - الذى يطلقون عليه (ملك الرعب البيولوجى) - فإن رعب التحلل الجسدى هو أشنع أنواع الرعب على الإطلاق .. رعب أن تتبادل أجسادنا التى عرفناها جيدًا وتذوب .. من بين كل الأمراض يتمتع (الجذام Leprosy) بسمعة سيئة لأنه يعنى تساقط الأطراف والأنف .. رعب التحلل الجسدى يطاردنا طيلة الوقت فى صورة الشيخوخة ..

هذا الرجل يفقد أجزاء من جسده .. وهذه الأجزاء تتصرف بشكل غريب حقًا لا ألومه على شىء ..

كنت قد بدأت أتحمس .. وأنا من النادر أن أتحمس لشىء ..

هكذا وضعت أوراقى فى درج المكتب ، وأعلنت أننى راغب بحق فى أن نذهب لنحقق فى الموضوع .. لم يكن على استعداد لهذا الحماس المفاجئ ، لكنى كنت مصراً كالخرتيت .

وسرعان ما كنا نتجه إلى بيته ..

* * *



على باب شقته توقف .. وكنت أنا أمارس واجب اللهاث المعتاد بانتظار العثور على مقعد ..

قال لى وهو يدخل :

- «لحظة واحدة .. سأعود حالاً .. »

توارى بضع دقائق ، وأنا أحاول جاهداً استجماع أنفاسى .. ثم عاد لى حاملاً مفتاحًا مشهوراً فى يده وقال وهو يتجاوزنى :

- «ليس هنا .. أنت تعرف ذلك .. سيبدو الأمر مريبًا لو ... »

لم أفهم شيئاً لكنه اتجه إلى الشقة المقابلة وأولج فيها مفتاحًا ثم آخر .. عدة أقفال تنفتح ، ثم فتح الباب ..

الرائحة المميزة للشقق المغلقة من فترة طويلة تطالعنى ، ورأيته قد دخل فدخلت خلفه ..

على قدر ما تبين لى كانت الشقة خالية تمامًا ، ماعدا أريكة عتيقة ملقاة فى ركن الصالة وبضعة صناديق ورقية يبدو أن بعض محتويات الشقة تم تكديسها فيها .. هناك ورق حائط عتيق يعود لفترة ازدهار فن (البوب Pop) .. كل شىء فى الحياة كان مشجراً زاهى الألوان فى تلك الفترة .. القمصان وورق الحائط والسجاجيد ..

مشيت وراءه فإذا لخطواتى صدى غير محبب على الإطلاق .. سعلت فكان لسعالى صدى كريه ..

قال وهو يشير إلى ممر جانبى ضيق :

ـ « إنه الحمام .. أنت تعرف أن .. »

طيلة الوقت يفترض أننى أعرف أن .. كما أنه لا يكمل أية جملة حتى نهايتها ..

مشيت وراءه إلى الحمام .. ونظرت إلى حيث وقف أمام المغطس ، وأشار إلى شيء فى داخله ..

هنا تصلب الشعر الباقى على جانبى رأسى ..

* * *

كانت هناك عدة أشياء فى المغطس الجاف ..

بعض هذا الأشياء كان بحجم رأسك ـ لو كنت فتاة دقيقة الحجم ـ وبعضها بحجم البطيخة المكتنزة .. الشيء الذى يميزها جميعًا هو أنها بشعة المنظر .. يوجد مركز أبيض يمكن أن تراه بشيء من العسر وسط زغب كثيف يحيط به .. لو شئت أن تصور المنظر بدقة فاترك برتقالة تتعفن بضعة أيام ، ولسوف تجد الزغب يحيط بها ..



أهداب دقيقة .. أهداب دقيقة تخرج من كل صوب وفى كل اتجاه .. أهداب يغلب عليها اللون الرمادى ، لكنك تتبين بسهولة ظلال اللون الأزرق أو الأخضر ..

قال ( بكر ) وهو يشير إلى شيء داخل فمه :

ـ « سوف تعد أربع أسنان سقطت فى فترة وجيزة .. أما هذا فحصوة الكلى .. »

لم أدر .. هل أتجاسر فألمس هذه الأشياء أم أننى أجازف بالتقاط عدوى ما .. عدوى ؟ لا أعرف عدوى تسبب شيئًا كهذا ، ولم أسمع عنها .. لكن هناك مرة أولى دائمًا .. ربما أكون أول أحمق يلمس هذه البكتريا الجديدة التى ستصفها كتب الطب بالتفصيل بعد عشرين عامًا ..

قلت له وأنا أحك رأسى :

ـ « حقًا لا أعرف كنه هذا .. إنه غريب .. ولأنه غريب هو مفزع .. »

ـ « ليس هذا كل شيء .. »

ومد يده إلى جوار المغطس .. كانت هناك عصا مكنسة ملقاة على الأرض .. قبض عليها ومد يده بحذر إلى داخل المغطس .. المنظر الذى ذكرنى بحارس حديقة الحيوان حين يدس شريحة من اللحم بعصاه فى فم أسد غضوب ..

هنا .. تحركت الأهداب !

تحركت بقوة بحركة متموجة تذكرني بحركة أقدام الأخطبوط ..

صحت وأنا أتراجع للوراء :

ـ « هذا كائن حي !! »

قال في غيظ :

ـ « لم آت بك إلى هنا لتصف لي ما أراه .. طلبت رأيك لا وصف ما تراه بأسلوبك البليغ .. »

قلت في غيظ مماثل :

ـ « لا تتوقع مني أن أنظر إلى المشهد بلامبالاة ، ثم أقول : (آه .. أوه .. هذه حالة سربلسيا واضحة .. لقد رأيتها عشرين مرة من قبل .. ) .. إن هذا الذي أراه لم يمر بي قط .. لابد من فترة أستجمع بها خواطري .. »

مد العصا وعابث جسمًا آخر ، فانتفض ..

هذه ـ على قدر علمي ـ أغرب حديقة حيوان على وجه الأرض ..



أضاف وهو يعيد العصا لمكانها :

ـ « الطريف هنا هو أنها تنمو باستمرار .. قارن بين حجم السن وحجم هذا الشيء .. الأمر يتعلق بمتوالية هندسية لا عددية »

كنت أنا على وشك الإصابة بنزف مخي .. كل هذا عجيب ، لكن من الواضح أنه أخذ أكثر من وقته ليحلل الموقف ، هو يعرف طباع هذا الشيء جيدًا ..

همس وهو يتراجع عن المغطس .. للمرة الأولى أستطيع أن أعد أسنانه الناقصة :

ـ « هل ثمة مثل معين في ذهنك عدا حالة (السربلسيا) هذه ؟ »

فكرت حينًا ، ثم قلت :

ـ « الأمر شبيه إلى حدٍ ما بأخذ نسيج من جسد حي واستزراعه .. هناك خط نسيجي Cell Line شهير اسمه HELA .. عبارة عن سرطان عنق الرحم لامرأة تدعى ( هيلين لين ) ، ماتت منذ عشرات السنين .. ما زالت خلاياها حية وقد تكاثرت ، وهي موجودة في مختبرات عديدة من العالم .. يمكن القول إن هذه الخلايا خلدت بينما صاحبتها هيكل عظمي في القبر الآن .. هذا هو المثال الوحيد الذي يحضرني .. »

ثم أردفت وأنا آخذ شهيقًا عميقًا :

ـ «لكن الفارق واضح .. نحن لانتكلم هنا عن خلايا .. نحن نتكلم عن أسنان وحصوة أوكسالات .. باختصار هى أجسام ميتة بالفعل لا يمكن أن تتكاثر .. »

هز رأسه وضحك .. ذلك الضحك الذى يوحى بأن الصدر صندوق ملىء ببلى الأطفال .. إنه مدخن كما هو واضح ، كما أن حالته العقلية ليست على ما يرام .. إنه على حافة الهستيريا ..

•

قال لى وهو يخرج من الحمام :

ـ «أنا أصلاً محاسب ولا أفهم هذه الأمور الطبية جيدًا .. لكننى أستخلص من كلامك إن ما أمر به عجيب .. »

ـ «هل مازلت تشك فى الأمر ؟ »

وجثوت جوار المغطس ، وأخرجت من جيبى منديلاً ورقيًا صغيرًا ، بحثت عن مطواتى ففتحتها .. ورحت أزيل بعض هذا الرعب الرهيب لأضعه فى المنديل .

قال (بكر) الواقف على الباب :

ـ «لم أعرف أن أطباء أمراض الدم يحملون مطواة .. »



ـ «المتحمسون منهم يفعلون .. سآخذ هذه العينة لفحصها مجهريًا .. هذه هى الخطوة الأولى .. »

كانت الأهداب الرهيبة تتلوى فى المنديل الورقى .. فشعرت بتقزز .. أخرجت كيسًا صغيرًا من البلاستيك ودسست المنديل الملفوف فيه ، فسمعت (بكر) يقول طبعًا :

ـ «وهل أطباء أمراض الدم المتحمسون يحملون كيسًا من البلاستيك كذلك ؟ »

ـ «فقط الذين كانوا ينوون ابتياع خبز فى طريق العودة لدارهم .. والآن هلا خرجنا من هنا ؟ »

وهكذا غادرنا الشقة الرهيبة ، ووقفت أراقبه أثناء غلق البابين مفكرًا ..

فى هذه اللحظة سمعنا صوت خطوات على الدرج ..

برز رأس .. ثم وجه .. امرأة فى الأربعين من عمرها أدمنت اتساع العينين رعبًا وشكًا ، حتى صار هذا جزء من مظهرها العام .. كانت تحمل بعض الخضراوات وقد بدا أنها خاضت موقعة لا بأس بها فى وسائل المواصلات ..

ـ «تعالى يا (عفاف) .. الدكتور (رفعت) صديق عزيز .. »

هزت رأسها فى فتور ، ونظرت لزوجها مرتابة :

ـ «لم تذهب للعمل اليوم .. قلت إنك ذاهب .. »

ـ «طلبت الانصراف مبكرًا .. »

راحت تنقل عينيها بين وجهينا باحثة عن مكيدة ما .. ثمة لعبة قذرة هنا .. قلبها يحدثها بهذا ، لكنها لم تستطع أن تبتكر شيئًا ، لهذا فتحت باب شقتها ودخلت .. دعانى ( بكر ) إلى الدخول فلبيت .. من المفيد أن ألقى نظرة على حياته ..

دخلت الزوجة المطبخ ، وسمعتها تتشاجر بصوت عال .. لا ليس بسببى ولكن لأنها تشك فى أن البائعة تطفف فى الميزان .. وسمعتها تطلب من زوجها إحضار الميزان كى تعيد وزن هذه الطماطم ..

ـ «هؤلاء اللصوص .. يكفى أن يغمض المرء عينيه لحظة حتى يجد نفسه متسولاً .. »

كانت شقة عادية جدًا ضيقة .. من الشقق التى نسميها ( مساكن شعبية ) .. الأثاث لا يوحى بثراء ولا فقر .. لكن جوًا عامًا من الكآبة يخيم على كل شىء .. حياتهم غير بهيجة على الإطلاق ولا أعرف السبب .. كما فهمت منه فزوجته لا تعرف شيئًا عن الموضوع ..



بعد ثانيتين عاد ( بكر ) حاملاً تفاحتين ، وراح يلتهمهما معى فى نهم غير عادى .. لا أعرف سبب هذا الجوع لكنه ذكرنى بمرضى السكر حين ينقص السكر فى دمهم عندها يلتهمون أى شىء سكرى بهذه اللهفة ..

زجاجة المياه الغازية التعسة إياها .. والأسوأ أن الزوجة غادرت المطبخ كى تجلس على الأريكة ترمقنى فى شك هى تتوقع مصيبة وأنا أبدو كواحدة .. لهذا لم ألمها كثيرًا ..

قال ( بكر ) متظاهرًا بالمرح والظرف :

ـ «اتفقنا يا دكتور ؟ ستبلغنى برأيك .. هه ؟ لم أمر عليك بعد يومين ؟ »

قالت الزوجة فى شك :

ـ «رأيه فى ماذا ؟ هل أنت مريض ؟ »

ـ «بل هو يبحث عن شقة ، وقد جاء ليرى شقة جارنا .. »

نظرت لى مرتابة .. لا يبدو على مظهرى أننى من الطراز الذى يبحث عن شقة .. لا أعرف كيف يبدون لكننى لست منهم بالتأكيد .. إن ذهنها يمتلئ بالأسئلة .. أعرف هذا الطراز من النساء جيدًا ..

عادت تسأل زوجها :

ـ « هل أحضرت ( دينا ) من المدرسة ؟ »

هنا فقط لم يعد يتحمل أكثر .. صاح فى غضب :

ـ « وهل أحضرتها وأخفيتها أو خنقتها ؟ طبعًا ما دمت لم تريها فأنا لم أحضرها بعد .. »

وأردف قائلاً لى :

ـ « سوف أخرج معك .. إننى أشعر بتوتر عصبى شديد .. »

* * *

## 5ـ مقدمة لابد منها لفهم القصة ..

فيما بعد عرفت هذا الجزء من القصة ..

الحقيقة أننى فى هذه القصة بالذات ، أتصرف كمن دخل الفيلم السينمائى فى منتصفه .. لم أعرف كيف بدأ كل شىء .. فاتتنى الكثير من العلاقات والمقدمات .. لهذا عرفت الإجابة متأخرًا جدًا ..

عندما جاء المساء ذهب (بكر) للقاء أصدقائه كالعادة .. هناك ناد صغير للمحاسبين .. لا ليس نقابة ولكنها كافيتريا استولوا عليها لحسابهم وصار كل من يجلس عليها محاسبًا .. حتى إن الغريب الذى يجلس فيها يعامل معاملة سيئة جدًا ، بل يقابل بنظرات الشك ..

المهم أنه تذكر أنه لم يحلق شعر رأسه منذ شهر ونصف ، وقد كان يحرص على أن يقلل مرات الحلاقة ضغطًا للنفقات .. كل عاداته المكلفة قللها تحسبًا لانتهاء مدخراته .. صحيح أنه يوجد عملاً لكنه غير مجز وغير مستقر .. حتى الكافيتريا كان يرتادها بانتظام ؛ لأن هناك غالبًا بين رفاقه من يدعوه إلى كوب شاى أو أكثر ، ومن يدعوه إلى حجر دخان ..

قرر أن يتجه إلى الحلاق .. بضع دقائق قبل الموعد لن تضر أحدًا ..

بدأ العجوز يثرثر .. إن كل حلاق يفهم سياسة الدولة خيرًا من أي سياسي محترم ولديه حلول اقتصادية لم يتوصل لها صندوق النقد الدولي بعد ، كما أنه ناقد سينمائي وزير نساء وخبير في الانشطار النووي لو لزم الأمر ..

قال العجوز وهو يفتح المقص ويغلقه في الهواء كأنما هو يستدعي الشياطين :

ـ « صدقني .. إن النظرية التي توصلت إليها بعد تفكير طويل .. هذا الكلام الذي أقوله لن تجده في كتب ولن يصارحك به أحد .. صدقني ما توصلت إليه أن إسرائيل تضمر لنا شرًا .. »

لم يعلق (بكر) .. مع الحلاق لا تعلق ولكن أصغ باستسلام .. وأردف العجوز وهو يسن الموسى الحادة على حزام من الجلد :

ـ « ثم خذ عندك (بن جوريون) على سبيل المثال .. هذا الرجل يكفي أن تنظر له في عينيه كي تعرف .. إنه ينوي بك شرًا .. إن الأمر .. معقدة ! »

كان الألم في مؤخرة عنق (بكر) كافيًا ليعرف أنه جرح .. وهذا أنساه بالطبع أن الحلاق لم يقابل (بن جوريون) لأن الأخير مات من زمن بعيد لحسن حظنا ..



راح الحلاق يعتذر راح يسكب بعض الكولونيا على عنق (بكر) .. الأمر الذي يشبه صب حمض كبريتيك على جرح مفتوح .. إلا أنه نظر لـ (بكر) في المرآة في حيرة ، وقال :

ـ « لقد التأم ! لا أعرف كيف ! إن المعجزات تحدث دائمًا لكن البشر لا يعون .. »

ـ « هل تعني أن هذا الجرح التأم لمجرد أنك صببت عليه بعض هذا الحمض ؟ »

ـ « هذا هو ما أراه .. لكنني شخت يا أستاذ (بكر) ولم تعد عيناي كما كانتا .. دعنا نكمل كلامنا .. أقول لك إن (بن جوريون) هذا خبيث .. حينما قابل (جمال عبد الناصر) العام الماضي قال له : أنا أريد هدم بلاد العرب .. »

ـ « (بن جوريون) قابل (جمال عبد الناصر) العام الماضي ؟؟!! »

ـ « نعم .. نعم .. ابن خالتي كان موجودًا في اللقاء .. إنه .... ولكن .. »

ومن جديد تصلب الحلاق وراح يحملق في مؤخرة عنق (بكر) .. ثم قال في دهشة :

ـ « ما هذا ؟ »

ـ « جرح جديد ؟ »

التقط الحلاق مرآة مستديرة صغيرة وثبتها عند مؤخرة عنق (بكر) بحيث تعكس صورة مؤخرة رأسه، وقال :

ـ « هذه الأهداب الزرقاء .. ليست شعرًا .. إنها تخرج من تحت فروة الرأس .. لقد كان شعرك يخفيها لأنها رقيقة وعددها قليل .. لكننى الآن أراها بوضوح .. »

ارتجف (بكر) فى مقعده .. وشعر بقلبه يخفق تحت المنشفة المتسخة على صدره .. إنه لا يرى شيئًا فى المرآة لكن يمكنه أن يتخيل ..

مد الحلاق الموسى وبحذر عالج شيئًا فى مؤخرة الرأس .. ثم مد كفه المفتوحة لـ (بكر) وقال :

ـ « أهداب كهذه .. »

لم يحتج (بكر) إلى إطالة النظر ؟؟ إنها هى .. ذات الأهداب اللعينة التى كانت تخرج من أسنانه والحصوة .. إنها حية تتحرك حركة كسولا كديدان الأرض .. زرقاء شفافة رقيقة جدًا ..

قال الحلاق وهو يتخلص منها فى القمامة مشمئزًا :

ـ « لا أعرف ما هى لكن لا بد أن ترى طبيب أمراض جلدية .. سيكتب لك أقراصًا تزيلها فورًا .. »



ـ « سأفعل .. »

قالها وتنهد .. لو كان حل المشكلة بهذه البساطة لكانت الحياة باسمة أكثر من اللازم ..

* * *

أما أنا فكنت فى هذه الآونة جالس مع صديق من قسم الأنسجة ..

لم يكن سوانا فى المختبر .. بل الكلية ذاتها .. المكان الوحيد المضاء فى هذه الساعة، مما أضفى رهبة معينة على لحظات الاكتشاف هذه :

ـ « ليس هذا نسيجًا حيًا أعرفه .. »

ـ « لكنه يتكون من شىء ما .. أليس كذلك ؟ »

فكر قليلاً ثم تفحص العينات التى أعدها تحت المجهر، وقال دون أن يبعد عينه عن العدسة :

ـ « لو أردت رأيى .. يبدو الأمر كمدمج خلوى Syncytium .. مجموعة من النقاط تسبح فى بحيرة من السيتوبلازم

Cytoplasm .. لكن لا توجد أية محاولة لتكوين جدران خلوية .. وهذه النقاط لا تصلح لتكون أنوية .. »

جلست على مقعد غير مريح، يناسب حالتي العقلية وسألته :

– « ألم تر شيئاً كهذا من قبل ؟ »

– « يبدو كأهداب الحيوانات وحيدة الخلية Ciliates .. لكني لم أرها قط بهذا الطول وهذا الحجم .. »

عوى كلب في مكان ما من بعيد .. فجاوبته الكلاب المحبوسة في أقفاصها في قسم ( الفسيولوجيا ) .. تأثير ليس محبباً للنفس كما ترى ..

قلت له في كياسة :

– « هل تقبل أن تقدم لي المزيد من الخدمات ؟ أريد أن تجرب كافة الأصباغ على هذه الشرائح .. يجب أن أعرف كنه هذا الشيء .. ما هي احتمالات أن يكون فطراً ؟ »

قال باسماً :

– « هذا هو الشيء الوحيد الذي أثق به .. ليس هذا فطراً ولا عفناً .. »



– « أنت تعرف جيداً ما ليس هذا الشيء ! »

– « هذا مفهوم في حد ذاته .. أنت تعرف ما قاله (توماس أديسون Edison المخترع الأمريكي العظيم : ( أنا لم أفشل في مائة تجربة .. بل اكتشفت مائة طريقة لا تعمل ) ! من المفيد أن تعرف ( ما ليس ) كما يفيدك أن تعرف ( ما هو ) .. »

– « سأفكر بهذه الطريقة المتفائلة .. »

راح ينظر تحت المجهر قليلاً، ثم قال :

– « بيني وبينك يبدو أننا وجدنا شيئاً جديداً .. إننا وجدنا كائناً لم يوجد قط .. أو بمعنى أدق لم يصفه أحد قبلنا .. إنني أرى عشرات الأوراق العلمية تنتظرنا .. »

ضحكت حتى بدأت أسعل وسألته :

– « هل تقترح اسماً ؟؟ إن لك الشرف في هذا .. »

قال ببساطة :

– « الفيروس Virus بدوره كائن غامض لا نفهم كيف يعمل .. بروتين وحمض نووي كلاهما ميت .. لكن ما إن يندمجا حتى تبعث الحياة في هذا الكائن ويتكاثر ويقتل .. فيروس باللاتينية معناها ( سم ) .. سنطلق اسماً معدلاً على هذه الأشياء .. ( البيروسات ) .. »

ابتسمت وقد تذكرت أساليب الغش التجارى التى تتبع مع العلامات التجارية الشهيرة .. أجهزة إلكترونية تنتج فى اليابان ، فيتم إنتاجها فى ( ماليزيا ) مع إدخال تعديل بسيط جداً على الاسم .. بعد أعوام توفى (بروس لى Bruce Lee ) النجم الشهير فظهرت عشرات الأفلام الممثل اسمه (بروس لاى ) على أساس إن الحمقى لن يلاحظوا الفارق ..

فيروس وبيروس .. لا بأس .. دعابة لا بأس بها ..

نهضت متثائبًا وسألت صديقى ، واسمه (حسين) بالمناسبة ـ عما إذا كان يرغب فى الانصراف معى ، فقال إنه متحمس لما وجدناه ولسوف يقضى بعض الوقت هنا ..

على أننى فى طريق خروجى من الكلية رحت أفكر بعمق ..

الممر المظلم الطويل بين الأشجار الذى يعج بالطلبة والصخب صباحًا ، هو الآن ممر يصلح لفيلم رعب .. الإضاءة الخافتة لا تزيد الأمر جمالاً .. لكن الرعب الحقيقى كان يأتى من أفكارى ..

كنت قد شاهدت فيلم ( غزو خاطفى الأجساد Invasion Of body Snatchers أشهر أفلام رعب الاستحواذ فى عصرى، ورأيت كيف يستولى (الناس الخيوط) على البشر



فى قرية ، حتى يصير كل أهل القرية مجرد أغلفة تحوى هؤلاء .. كان ( الناس الخيوط ) قادمين من الفضاء الخارجى فى نيزك كالعادة ، فهل الأمر يتعلق بشىء كهذا ؟

ولو كان كذلك فكيف سأعرف ؟

توقفت جوار شجرة وقد خطرت لى فكرة معينة ..

كيف بدأ كل شىء ؟

(بكر ) قال إن هذا حدث فجأة ، وأنا ـ ببساطة ـ لا أصدق حرفًا .. لا أرى السبب لكنى أعرف الحقيقة المبتورة حين أسمع واحدة .. كان يتحاشى عينى ، ويحك أنفه طيلة الوقت .. قد لا يعنى هذا شيئًا ، لكن خبراء الإيماءات يقولون إن هذا دليل قوى على الكذب .. ( الأدرينالين ) يتعالى فى الدم فتنقبض الأوعية الدموية ، ويشعر الرجل بحاجة عصبية لحك طرف الأنف .. لاحظتها كثيرًا ووجدت أنها تصدق فى أغلب الحالات ..

(بكر ) لا يعرف كيف بدأت القصة ، لكنه بالتأكيد يعرف أين بدأت ..

لأزورنه غدًا ، ولأعرفن التفاصيل منه ..

* * *

# 6 ـ مقدمة لابد منها لفهم القصة ..

صوت غليظ :

ـ « لقد تمكنا منه يا رجال .. لا تتركوه يفر .. »

صوت متحشرج :

ـ « لا يلمسنه أحدكم .. لقد رأيتم ما حدث .. »

صوت من البادية :

ـ « أهيلوا التراب .. الكثير منه .. »

* * *

كان د. ( حسين ) غارقًا فى دراسة هذه الخيوط الغريبة تحت المجهر ..

كان قد أحضر قفصًا صغيرًا به فأر أبيض .. كان ينوى أن يضع بعض هذه الخيوط مع الفأر ويراقب ما حدث .. ويبدو أن الفأر شعر بالهلع لأنه راح يتسلق القضبان فى حالة هستيرية ..

بيروسات .. لا بأس بالاسم .. ما زال مذاقه غريبًا لكن



سرعان ما يعتاده اللسان .. يشبه الأمر قطعة اللادن الصلبة الجافة التى تمضغها عدة مرات ، حتى تتحول إلى عجينة لينة محببة المذاق ..

كان الآن متأكدًا من شىء واحد .. هذه الخيوط تكبر بلا انقطاع .. كانت مجرد راسب فى قاع أنبوب الاختبار ، ثم صارت تملؤها حتى الثلث ..

كان دقيقًا .. ( تكبر ) ولا ( تتكاثر ) لأنه لا يعرف كيف يصف هذه الظاهرة التى يراها ..

شعر بحاجة ماسة إلى قدح من القهوة فاتجه إلى ركن المختبر .. هناك يحتفظ ببراد شاى صغير و( كنكة ) صالحة لإعداد القهوة .. وفتح كيسًا من البلاستيك به السكر والبن ، وسرعان ما اشتعل مصباح ( بنزن Bunsen ) برائحته المميزة .. إن القهوة تقتبس دومًا جزءًا من رائحة اللهب الذى تعد عليه ، لهذا الشاى تناسبه ( السبرتاية ) بينما القهوة يناسبها مصباح ( بنزن ) ..

انتهى من إعداد القهوة ، فصبها فى كوب صغير ، وجلس يرشف السائل الساخن عطر الرائحة .. شاعرًا به يغسل أعصابه عصبًا .. عصبًا .. إن تفكيره يصفو ، وذهنه يزداد حدة ..

بالطبع لا يجد ما يفعله بعد أن يصلى الفجر فى مسجد قريب .. ثم يعرج على بائع الفول الشيخ مثله الذى يأتى مبكرًا فيملأ طبقًا ويضع بعض الأرغفة الساخنة السمراء تحت إبطه .ويعود لداره .. فى العاشرة صباحًا يتجه إلى صالون الحلاقة العتيق .. لم يعد هناك صبية يساعدونه فقد قل عدد زبائنه ولم يعد يستطيع الإنفاق على واحد ..

اليوم وجد ظاهرة غريبة بعض الشيء ..

هناك قطة .. قطة ميتة راقدة على جنبها أمام باب المحل بالضبط .. شعر بالشمئزاز مع كثير من التطير .. ليس هذا أفضل مشهد يبدأ به المرء يومه ، لكنه على كل حال حاول إبعادها ..

هنا لاحظ إن هذه الجثة غريبة المنظر .. ما سر هذه الخيوط الزرقاء التى تخرج من أنف وفم القطة ؟

كان واهن الذاكرة ضعيف البصر بطبعه ، لهذا تذكر للحظة أنه رأى شيئًا مماثلاً .. لكن متى وأين ؟ ومضة التمعت فى عقله وفى عينيه اللتين اعتمت عدستاهما .. ثم خبت الومضة سريعًا .. لقد نسى كل شيء من جديد .. لقد رأى الكثير من الموت فى حياته ، فما الجديد فى أن تموت قطة ؟



التقط ورقة جريدة لف بها الجثة ، وحملها إلى مقلب القمامة المجاور وتخلص منها ..

لكنه لم يستطع أن ينسى ذلك الشعور الممض بالنفور والتطير منها ..

ـ « يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم .. »

قالها وبدأ يفتح الأقفال ليرتفع ستار الصالون الحديدى ..

* * *

فى العاشرة صباحًا .. وهو نفس الوقت الذى فتح فيه الحلاق متجره ـ دخل (بكر) إلى مكتبى بالكلية ..

كان د. (حسين) هناك يضع قطرة العين فى عينى .. رفع عينه إلى زائرى فى تساؤل فقلت له وأنا أرمش :

ـ « هذا الأستاذ (بكر) .. لقد حكيت لك عنه .. »

هنا تحفز (حسين) وراح يرمق القادم فى اهتمام كأنه جاء من المريخ ..

كان (حسين) قد حكى لى كل شىء .. ولم أر فيه جديدًا .. هناك خيوط ـ أو فيروسات ـ تنمو بسرعة .. ما الجديد ؟ لقد

أحضرت له الخيوط وقلت له إنها تنمو بسرعة .. وبدأ هو العمل على أنها تنمو بسرعة .. واليوم جاءني في هستيريا ليخبرني إن الخيوط تنمو بسرعة ! أكره الذين ينسون قواعد اللعبة في منتصفها ..

بالنسبة لي لاتوجد مشكلة ، فإن مورد هذه الخيوط موجود ومتاح .. فلامشكلة في كونه أحرق بعضها لكنه ـ على كل حال ـ طرح سؤالاً مهماً : لماذا لاتفعل هذا طيلة الوقت ؟ لماذا لم تتم إلا في تلك اللحظة ..

جلس (بكر) في توتر .. كنت قد اتصلت به في عمله طالباً أن يوافيني على وجه السرعة .. لابأس .. إنه ملكي الآن .. يلعب على أرضي وبقواعدي .. لهذا أخرجت منديلي أفرغ ما سال من قطرة العين في أنفي ، وسألته في حسم :

ـ « هل حكيت لي الحقيقة عن بدء هذا المرض ؟ »

ـ « هل هو مرض ؟ »

ـ « تلك الظاهرة .. هل حكيت لي الحقيقة ؟ »

حك أنفه ليخفف الأدرينالين قليلاً ، وقال :

ـ « نعم .. بالفعل .. هي الحقيقة الكاملة .. »

نظرت إلى د. (حسين) ووجهت له الكلام (وهي طريقة يجيدها المحققون) :



ـ « من حين لآخر يظهر من يعتقد أنه يستطيع خداعي .. لكنه مخطئ .. هل ترى هذا معي ؟ ودعني أؤكد لك إنني عاجز تماماً عن إسداء أي عون لمن لا يعطيني الحقيقة كاملة .. »

ودارت محادثة طويلة بيني ود. (حسين) عن كيف أن الناس مخادعون .. يكتمون الحقائق ، ثم يطالبونك باتخاذ قرار .. وحكيت له عن مرضى جاءوا بقيء وعرق غزير وحدقات ضيقة يطلبون العون .. وفي النهاية ـ وبعد جهد جهيد ـ تستنتج أنهم بالتأكيد تعاطوا أو تعرضوا لسم ما من السموم الفوسفورية العضوية Organophosphorous .. هنا فقط يتكلمون .. يصارحونك بأنهم شربوا زجاجة (بوليس النجدة) من ساعة .. فلماذا التزمتم الصمت ؟ لماذا تريدون تعذيبي أيها الحمقى ؟

قال د. (حسين) الذي التقط الخيط بسهولة :

ـ « الحق إن الناس أشرار فعلاً .. إنهم يخدعونك دون فائدة مرجوة لهم .. بل يفعلون هذا على سبيل الرياضة .. »

ظللنا نحو خمس دقائق في عملية غسيل المخ هذه ودون أن نوجه كلمة واحدة للضيف .. في النهاية نظرت إليه فوجدته شاحباً كئيباً .. لو كان قد قتل رجلاً فلسوف يعترف الآن ..

تنحنح وقال لي :

- « (حسن) .. الحقيقة أن الموضوع بدأ في زمن محدد ومكان محدد .. أو هذا ما أعتقده .. »

وراح يحكي لي ، وفي هذه المرة لم يحك أنفه ..

* * *

لم يكن لدى (بكر) الكثير .

لم يكن يعرف شيئاً عن كيف بدأ الموضوع ، لكنه يربط بينه وبين فقدانه الوعي قرب ذلك القبر في قرية معينة لن أذكر اسمها كي لا يقاضيني أهلها .. لا توجد علامات قاطعة تقول إن القصة بدأت مع هذه الحادثة ، أولى العلامات ظهرت بعد شهر أو أكثر .. لكنه ..

- « المرء يعرف نفسه جيدًا .. ذلك الشعور بأنك لم تعد قط كما كنت بعد تلك الحادثة .. هناك بصمة معينة لروحك .. وأنت تعرف دون سواك متى تغيرت هذه البصمة .. »

فيما بعد تذكرت هذا التعبير حين حدثني أحد أصدقائي ممن يتعاملون مع الكمبيوتر ، كيف أن برامج مكافحة الفيروسات تحتفظ ببصمة للكمبيوتر ، تعرف بها متى تسلل فيروس ما . إن تغيير البصمة يعني حدوث شيء .. لا يهم ما هو .. لكن شيئا قد استجد .. شيئا ليس على ما يرام ..



سألت (بكر) وأنا أقلب كوب الشاي الذي طلبته :

- « هنا السؤال الكبير .. ماذا كنت تفعل في تلك القرية ؟ هل لأسرتك من هناك ؟ »

حك أنفه من جديد ، وقال وهو ينظر إلى كوب الشاي :

- « لا .. أنا من المنوفية أصلاً .. لكن قصة القرية هذه موضوع شخصي .. المهم وما يمكنك أن تستخلصه هو أنني فقدت وعيي في مكان معين ، وبعده لم أعد كما كنت .. »

ساد صمت ثقيل .. في النهاية رفعت كوب الشاي إلى فمي وجرعت جرعة نهمة ، وسألته :

- « هل يمكن أن تقودنا إلى هناك ؟ »

نقل عينيه بيني و (حسين) ، ثم قال :

- « أعتقد هذا .. »

نظرت متسائلاً إلى (حسين) فقال هذا وهو يبتسم بحرج :

- « لا .. أعتذر عن عدم قبولي هذه المهمة .. أنا مشغول جداً ، والقرية بعيدة بحق .. هذه الرحلة قد تستغرق يوماً .. »

- « لا ألومك .. ليس كل الناس يملكون طناً من الوقت مثلي ؟.. »

كقاعدة: كل الناس مشغولون لا يجدون وقتًا للتنفس .. حينما أسمعهم يتكلمون أحسبنى الشخص التافه الوحيد فى هذا العالم .. كلهم عظيمو الأهمية بينما أنا بالفعل أملك طنًا من الوقت .. أتذكر عبارة (أنيس منصور) الرائعة: «إن الوقت من ذهب .. وأنا لدى الكثير جدًا من الوقت، لكن ليس عندى ذهب ..»

هكذا تم ترتيب موعد الحملة المنتظرة .. سنذهب أنا و(بكر) إلى تلك القرية البائسة التى لا أعرف علاقته بها .. سأرى المكان الذى فقد وعيه فيه وأحاول استنتاج شىء ..

* * *

فيما بعد عرفت التالى ..

لسبب ما لم يستطع (بكر) أن يظل نائمًا فى تلك الليلة ..

كان قلقًا يتقلب كأنما ينام على فراش (النابغة الذبيانى) الشهير .. وفى الثالثة صباحًا نهض .. ثمة شىء يدعوه إلى أن يخرج من الدار .. يذهب إلى الشقة المجاورة .. يتفقد (أطفاله) هناك!

لم يكن الخطر موجودًا فى الشقة المجاورة .. كان موجودًا فى شقته هو؛ لأن الزوجة سوف تصحو من نومها بلا شك .. عندها كيف يمكنك أن تجد عذرًا تقنع به هذه الزوجة المتشككة ؟؟



سوف تجحظ عيناها حتى توشك على الخروج من المحجرين، وسوف ترتجف وتكرر السؤال عن السبب فى خروجه فى هذه الساعة .. ربما اضطر لخنقها كى تهدأ قليلاً..

لكن النداء كان أقوى منه. هكذا أخذ المفتاح من المزهرية، وبرفق فتح الباب، ولم يغلقه منعًا للضوضاء، اجتاز الممر إلى الشقة المجاورة .. أولج المفتاح فى الباب ..

أعاد القوابس إلى لوحة الكهرباء لأنه ينتزعها دائمًا طلبًا للأمان ..

( هذا الصوت ؟...... )

دخل إلى الحمام وفتح الضوء ..

( الصوت يعلو .. )

هنا تصلب فى مكانه وقد أوشك قلبه على أن يتوقف ..

لقد كبرت هذه الأشياء. كبرت إلى حد مروع .. بعضها صار بحجم كلب صغير .. وبعضها صار بحجم وطول ذراعك لو كنت رياضيًا .. أما الأسوأ فهو أنها المرة الأولى التى بدأت ملامحها تتخذ شكلاً حيًا واضحًا .. هناك

عين حمراء أو عينان .. إنها ترمقك .. من المؤكد أنها ترمقك ... بعض الأهداب تحور ليصير شبيهًا بالمخلب .. بعضها يبدو كأقدام الأخطبوط .. ثمة صوت حاد غريب ينبعث من المغطس .. أما عن الرائحة فحدث ولا حرج ..

هناك أحد هذه الأشياء يزحف فوق الجدار .. لقد خرج من المغطس ، ويزحف إلى الجدار المقابل ليتسلق البلاط الأملس .. هذا يعني أن لديه ما يشبه الممصات ..

فجأة خطر له أن ينظر لأعلى ففعل .. وكان ماتوقعه .. فوق رأسه بالضبط يتدلى من السقف أحد هذه الأشياء المريعة .. وقد تدلى منه ممس طويل يحاول الوصول إليه ..

انطلقت منه صرخة سرعان ما كتمها ..

لا يجب أن تصحو الزوجة على صرخته هي التي لم تصح على صوت فتح الباب .

أغلق باب الحمام وقلبه يتواثب ، حتى اضطر إلى غلق فمه بإحكام .. لن يندهش لو خرج قلبه من فمه ليقفز على البلاط كضفدع .. كل شيء ممكن .

وفجأة خطر له خاطر بهيج ..



هذا كابوس .. لا أكثر ولا أقل كان نائمًا ثم صحا من النوم ودخل الشقة .. التفسير الوحيد هو أنه لم يصح بعد .. إنه ما زال في الفراش يحلم ..

هكذا ـ راضيًا عن هذا الخطر ـ أغلق باب جاره وعاد إلى شقته .. فقط ليجد امرأته واقفة في الصالة وقد تحولت إلى تمثال مجسد للرعب والشك .. (ميدوسا) بشعرها المنكوش المخيف جاحظة العينين .. تقف في ضوء الصالة الخافت وتطلب منه تفسيرًا .. أحيانًا يصيب الرعب الناس إلى درجة مبالغ فيها ، تصيبنا بالرعب نحن أنفسنا ..

لكن المشكلة هنا هي أنه بدأ يفهم .. لم يكن هذا كابوسًا .. كان واقعًا .. واقعًا كليًا ..

- « (بكر) !! ماذا حدث ؟ لماذا غادرت الدار في هذه الساعة ؟ »

* * *

# 7 ـ مقدمة لابد منها لفهم القصة ..

لم أكن فخوراً بسيارتي الجديدة إلى هذا الحد ..

إنها كما لاحظتم مستعملة ، وليست فى أفضل حال ممكن ، وقد كنت مولعًا بسيارتي القديمة .. وصارت بيننا لغة تفاهم تشبه ما ينشأ بين زوجين عاشا معًا عشرين عامًا ..

لقد فشلت تمامًا فى جعل (بكر) يتكلم .. إنه كئيب شاحب الوجه صموت .. ولم أكن وقتها أعرف سبب هذا التبدل .. كان من قبل متماسكًا إلى حدٍ ما ، ولا أعتقد أن شيئًا جديدًا قد حدث ..

سألته بينما العربة تخرج من القاهرة :

ـ «يبدو أنك صرت تتخلف عن عملك كثيرًا هذه الأيام .. »

قال دون أن ينظر لى :

ـ «فليذهب العمل إلى الجحيم فأنا لا أحبه .. إن لم يقيلونى سأستقيل .. »

ثم عاد إلى الصمت ..



الواقع أننى حين أتذكر الأمر أجد أن هذا الرجل كان فى غاية التماسك .. حين ترى هذه الكائنات البشعة التى رآها ، وهو يعرف أنها خرجت من ذاته ، فمن الطبيعى أن تنهار تمامًا .. الحقيقة أن (بكر) كان أكثر وعورة وعمقًا مما تصورت ، كان أشبه ببئر يخفى أسرارًا عديدة .. أو ـ كما يحلو للإنجليز القول ـ هو جبل جليدى Iceberg لا نرى إلا قمته ..

طالت الرحلة .. طالت .

أنا بطبعى أمقت القيادة لفترة طويلة .. وقد كان المشوار شاقًا بحق ..

فى النهاية ظهرت القرية ..

كنا نسأل كل من يقابلنا عن مكان المقابر .. إن (بكر) يعرف القرية لكنه ليس خبيرًا بها ، وهو لا يعرف كيف تتجه إلى المقابر .. وقد ساعدنا هذا على إعطاء سبب لقدومنا .. السبب مهم جدًا فى الريف ، لأن كل القرية ـ بلا مبالغة ـ تخرج لمراقبتك فى شك .. الكل يشعر بحق إلهى فى التدخل فيما لا يعنيه .. فجأة صارت للإنسان مهمة واحدة فى الحياة هى معرفة ماذا تريد .. لم يعد أحد يأكل أو يشرب أو يعمل ولم تعد هناك هموم أو مشاكل ما عداك .. عشرات يدنون من نافذة السيارة ليسألونك :

– «من تريد هنا يا أستاذ ؟»

فأقول راسمًا ابتسامة على وجهي :

– «قبر جماعة (شرشيرة) .. إنهم أقاربنا من بعيد ..»

هذا لأن اسم (عبد السلام شرشيرة) هو الاسم الوحيد الذى يحتفظ به (بكر) فى ذاكرته .. هو فقد الوعى وكان يرى شاهد ذلك القبر .. هذا من ناحية يجعلنا نعرف الموضع ، ومن ناحية أخرى يجعلنا غير غريبين عن القرية ..

يفكر المتطوع مليًا ويعبث تحت اللبدة التى يرتديها ، ويتساءل :

– «(عبد السلام شرشيرة) ؟»

ثم يفرد ذراعه ويشير إلى اتجاه ما .. أو يمسك بصبى متسخ شرس من قفاه ويصفعه ويأمره :

– «خذهم يا ولد إلى تربة (شرشيرة) ..»

ويثب الصبى إلى المقعد الخلفى للسيارة ليرشدنا .. لكن هذا لا يشبع النفوس هنا .. فلا تلبث أن تقابل من يدس رأسه فى النافذة ويسألك :

– «من تريد هنا يا أستاذ ؟»



هكذا يمر الوقت والسيارة تتسلق تلالاً وتهبط وديانًا .. كل باى ومسمار فيها يئن ، وأنت تحاول ألا تدهم عنزة عابثة أو دجاجة ضالة ، أو طفلاً يزحف .. لأن معنى هذا أن تلقى حتفك بالفئوس خلال ثلاثين ثانية ..

كنت أنا قد وصلت إلى استنتاج مهم بعد عشرات الوجوه التى أرشدتنا لوجهتنا : لا أحد يعرف (بكر) فى هذه القرية ، فما معنى أنه كان منهمكًا بأمور شخصية فيها ؟ لماذا جاءها أصلاً ؟

لن يجيب عن هذه النقطة لو سألته .. لكنه سيفرغ أحشاءه فيما بعد .. أعرف أنه سينهار ويفعلها ..

فى النهاية ترى منظر المقابر البهيج يمتد أمام عينيك ..

ويهتف الصبى من المقعد الخلفى :

– «تعال يا أستاذ .. سأريكما التربة ..»

جذبت فرملة اليد التى لا تعمل ، وترجلنا .. مشينا بعض الوقت خلف الصبى .. كانت هناك مجموعة من الأشجار .. ما هو أقرب إلى ممر ضيق طويل .. و ..

سمعت أنة فنظرت لمصدرها .. كان (بكر) يتأمل الأشجار وقد تقلصت شفتاه .. وخطر لى : هذا الرجل يتذكر شيئًا ما .. أنا متأكد من هذا .. لقد كان هنا لكنه نسى ..

هناك فرجة بين الأشجار اجتازها الصبى برشاقة ووقفنا نحن كأبلهين ..

الحقيقة أن الفرجة ضيقة جداً خلفها منحدر واضح .. هذا يعنى أنه بعد ما تتمزق ثيابك بين الشجرتين ، سوف تنحدر فى التراب أو الطين مسافة لا بأس بها .

صحت فى الغلام :

ـ « ألا توجد طريقة أسهل ؟ مستحيل أن يمارس كل من يزور القبر هذه الألعاب البهلوانية .. »

ـ « لكن هذه أقصر وأسرع .. هلم يا أستاذ ! »

توكلت على الله ، ونظرت إلى ( بكر ) لكنه كان يعيش أسوأ حالاته .. ماذا يخيفه عنى بالضبط ؟ وهكذا قررت أن أبدأ أنا .. لا بد ـ بالنسبة لللياقتى البدنية ـ من شخص ينتظر خلفى ليجرنى من عنقى لو انحشرت أو تعثرت ..

بصعوبة مررت بين الفرجة وبصعوبة أكثر نجحت فى ألا أطير عبر المنحدر .. وفى النهاية وجدت أننى أقف وسط المقابر بالضبط وقد صارت بذلتى قصيرة الأكمام رمادية من فرط الغبار ..

بعد قليل لحق بى ( بكر ) وهو يلهث ..



وقف ينظر حوله فى حيرة ، ثم سأل الغلام مرتاباً :

ـ « هل هناك فتحة أخرى تقود لهنا ؟ »

قال الغلام وهو يلوك ثمرة ( جميز ) لا أدرى من أين ظفر بها :

« هناك فتحة أخرى هناك يا أستاذ .. لكننا لا ندخل منها .. بسم الله الرحمن الرحيم .. »

سألته خارج الموضوع كعادتى :

ـ « ما هذا الذى تأكله ؟ »

ـ « جميز » ـ قالها وهو يضع واحدة فى يدى ـ « إن هناك شجرة جميز هنا .. هل تأكل يا أستاذ ؟ »

ـ « شكراً .. أفضل أن أغسلها أولاً .. »

شد شعره فى جنون كأنه ( توسكانينى ) وقد سمع عازفاً يعزف لحناً نشازاً .. وصاح :

« لا يا أستاذ .. هذه الشجرة تتغذى من المقابر .. ويجب ألا تغسلها كى لا تزول حلاوة طعمها !! »

كان هذا كافياً كى أعيد له الثمرة ، وأسأله وأنا أبتلع ريقى عن مكان القبر ، فقال وهو يشير إلى شاهد :

ـ « هناك .. ( عبد السلام شرشيرة ) .. »

سأله (بكر) وهو يشير إلى قبر آخر جوار الأشجار :

ـ «وهذا ؟»

ـ «أعوذ بالله يا أستاذ .. لا تتكلم عنه ولا تدن منه .. بسم الله الرحمن الرحيم .. لا أحد فى القرية يقترب منه .. »

ـ «ولماذا ؟»

ـ «لا تسأل يا أستاذ .. اللهم احفظنا»

وتفل فى صدر جلبابه المتسخ ..

مددت يدى ودسست فى يد الغلام قطعتى عملة ، فانطلق يركض مبتعداً .. واستدرت إلى (بكر) الذى لم يرفع عينيه عن القبر وقلت :

ـ «هو لا يعرف .. هذه هى القصة دائماً .. هذا القبر (تابو Taboo) توارثته الأجيال واكتسب مهابة لاحد لها ، لكن لو سألت نصف رجال القرية لما عرف أحدهم السبب .. »

ابتلع (بكر) ريقه ، وقال :

ـ «لقد فقدت وعيى فوق هذا القبر بالذات .. »



ثم نظر إلى السماء وهمس :

ـ «هل لاحظت شيئاً آخر ؟»

ـ «لا .. ماذا تعنيه ؟»

«السماء تعج بالطيور .. فلماذا لم يحلق طائر واحد فوق هذا القبر ؟ المكان يعج بالذباب .. هل ترى ذبابة واحدة فوق هذا القبر ؟»

* * *

على ضوء الغروب الأرجوانى ، صب لنا الشيخ (عارف) بعض الشاى فى كوبين مبتلين ، وناول كلاً منا واحداً ..

ثم إنه سحب بضعة أنفاس قوية من (الجوزة) التى يحتضنها فى حب كأنها قيثار .. وقال :

ـ «كل هذا الكلام أقاويل يا أستاذ .. لا أحد يعرف الحقيقة لكن لا أحد يجرؤ .. »

كان الشيخ (عارف) هو اللحاد الذى وجدنا الغرفة التى يقيم فيها عند مدخل المقبرة .. كان عجوزاً طيباً له أسنان ذهبية ، وبال رائق كف عن الاهتمام بأى شىء ..

كان جالسًا على باب الغرفة الطينية ، والجوزة على حجره ، بينما النار تشتعل فى حفرة بها بعض جذوع الخشب المتفحمة ، وقد أراح على حافة الحفرة فوق حجرين براد شاى كان أزرق .. إنه الآن أسود لكن رائحته عطرة للغاية ..

سألته وأنا أرشف الشاى فى شغف :

ـ « شف ف ف ! لكنك متأكد من أن شيئًا مخيفًا دفن هنا .. »

ـ « لا أعرف أى شىء عن هذا يا أستاذ .. هذا كلام قاله لى وسمعه من أبيه .. يقولون إنه كان ماردًا من الجن أو عفريتًا .. المهم أن الرجال حاصروه وقتلوه ودفنوه هنا .. لابد أن هذا كان من مائة سنة على الأقل .. المهم أننا وجدنا آباءنا يقولون لنا إن هذا القبر محرم علينا .. أنا ربيت ولدى على ذلك وأعتقد أنه سيربى ابنه عليه .. بينى وبينك .. لا أعتقد أن هناك شيئًا فى القبر أصلاً .. »

فى نفاد صبر قال ( بكر ) :

ـ « نحن نريد معرفة محتوى هذا القبر .. ما العمل ؟ »

راح الرجل يسحب نفسًا عميقًا من الجوزة .. قرقرة فى قرقرة .. فى النهاية لخرج من صدره العجوز سحابة يمكن أن تغطى قرص الشمس ، وقال :

ـ « صل على رسول الله يا أستاذ .. »



ـ « عليه الصلاة والسلام .. »

ـ « أنا لن أساعدك .. لو عرف أهل القرية بشىء كهذا لطارت أعناقنا ، لكنى فى الوقت نفسه لا أعتقد أن فى هذا القبر شيئًا ، أى أننا لاننتهك حرمة ميت .. لهذا يمكننى أن أقودك إلى من يساعدك مقابل مال .. وطبعًا لابد من الانتظار حتى يحل الظلام .. »

تبادلنا النظرات ، ثم صاح ( بكر ) فى حماس :

ـ « أى مبلغ يطلبه .. »

ابتسم العجوز طويلاً ، ثم نهض مترنحًا وتوارى خلف الغرفة .. هنا هتفت فى ( بكر ) :

ـ « هذه جريمة .. جريمة فى نظر القانون وأهل القرية ، على أننى أفضل بالطبع أن يقبض علينا على أن يعرف الأهالى .. لقد عرفنا أن هناك شيئًا .. فدعنا نرحل بالله عليك .. »

ـ « ليس قبل أن أفهم .. يسهل عليك الكلام لأنك لست من يفقد أجزاءه ويتحول إلى مسوخ .. أما أنا .. »

ـ « ليست مسوخًا بل هى ( بيروسات ) .. »

ـ « ماذا تقول ؟ »

- « لا عليك .. أفكر بصوت مسموع لا أكثر .. »

بعد قليل ارتجت الأرض .. لا لم يكن هذا الأخ ( جودزيلا Godzilla ) وقد قرر أن يزور مصر ، وليته كان .. كان رجلاً يشبه باب حجرتك فى كل شىء .. الحجم والملامح والعينين .. جاء وراء الشيخ ( عارف ) وهو ينظر لنا بريبة ..

- « إن ( سعد ) سيساعدكما .. لكن لا تنسيا عرقه .. »

أدركت على الفور أن ( سعد ) نابش قبور محترف .. كلهم يحمل ذات السمات وله ذات البنية ، فقد عرفت الكثيرين منهم بحكم مهنتى .. يبدو أن لهم نقابة ما تشترط هذا المظهر .. فقط يتظاهر الرجلان بالبراءة بينما هما فعلا الشىء ذاته عشرات المرات .. إن التظاهر بالبراءة والخوف مجرد طريقة لرفع السعر .. وبالنسبة لهؤلاء القوم يكون الخوف من الأشباح والمسوخ نوعًا من الميوعة .. على كل أنا أفضل هذا .. سيكون الأمر مأمونًا مع محترف ..

لكن قطعت على أفكارى رؤية النظرة فى عينى ( بكر ) .. النظرة فى عينى ( سعد ) كذلك لم تكن مريحة .. لقد



فوجئ الرجلان ببعضهما هنا ، ومن الجلى أن ( بكر ) عرف ( سعد ) .. هذا واضح .. لكن متى وأين ؟

لم أحاول أن أسأل ..

دامت الجلسة ساعة أو ساعتين ، حتى صار الظلام دامسًا .. من بعيد ترى أضواء القرية المتناثرة .. طبعًا ليست فى كثافة أضواء المدينة ، وهى أضواء ستبقى ثلاث ساعات أخرى ثم يسود الظلام ..

قلت لـ ( بكر ) وأنا أشرب كوبًا آخر من الشاى :

- « نسيت أن أقول لك إننى أسوأ سائق فى الليل .. لو لم يأت النهار وأنت فى قاع ترعة فاعتبر أنك محظوظ »

- « لست قلقًا .. »

قالها فى شرود :

- « هناك ألف سبب للموت قبل هذا الموعد »

ولم أعرف كم كان صادقًا فى هذه الكلمة إلا فيما بعد ..

بعد قليل نظر لنا الشيخ ( عارف ) وقال وهو يثبت حجرًا على الجوزة :

« هيا يارجال .. لا تطيلوا بقاءكم ، أنت أردت نظرة يا أستاذ فاظفر بها سريعًا .. »

وخرجنا فى الظلام إلى المقبرة الممتدة أمامنا .. إلا أغنية من كلمات ( عبد الرحمن الأبنودى ) ، لتكتمل الملحمة عن مطاريد الجبل .. كان ( سعد ) هذا يتقدمنا وفى يده كلوب وفى اليد الأخرى رفش .. أتبعه أنا ثم ( بكر ) يحمل رفشًا آخر ..

أخيرًا نقف عند القبر المشئوم ..

يضع (سعد ) الكلوب على الأرض ..

يشمر عن ذراعيه ويبدأ العمل ..

* * *

## ٨ ـ مقدمة لابد منها لفهم القصة ..

صوت من البرية :

ـ « لقد انتهينا منه ! »

صوت فى الظلام :

ـ « لا .. إنما هو قد سجن .. ولسوف يتحرر .. »

صوت غاضب :

ـ « لن يتحرر ونحن أحياء .. »

* * *

يجب هنا أن أذكر عدة أشياء ..

أولاً .. كانت هناك قطرات دم جافة على كل شىء .. لم أفهم سببها .. لكن القارئ يذكر طبعًا .. إنه الدم الذى سال من ( بكر ) حين سقط هناك ..

ثانيًا .. كان التراب مخلخلاً بشدة .. خطر لى أن هناك فئران أو حشرات ما ، لكن كما قلت آنفًا كان هذا القبر خارجًا من نطاق الإمكانيات البيولوجية .. باختصار كانت

الحيوانات والحشرات أذكى من أن تقترب منه ، وغريزة الحيوان لا تخطئ .. هذا هو ما يسبب الذعر والتوجس كلما انتفض القط ، أو راح الكلب يعوى بلا سبب ..

ثالثًا .. بدا لنا أن القبر خال فعلاً .. كانت هناك أحجار .. لكن لا أثر لأية بقايا عضوية أو عظام ..

خطر لى أن القبر لم يكن خاويًا من قبل .. وخطر لى كذلك خاطر مرعب .. إن القبر خاو لأن الشيء الذى كان فيه موجود فى ( بكر ) الآن .. هل لديك تفسير آخر ؟

كنت ـ كما تتوقع ـ فى أسوأ حال ، لأن كل الغبار المتصاعد حرك الحساسية لدى .. صار أنفى يسيل وعيناى تدمعان .. ولم تكن القطرات معى ..

توقف ( سعد ) عن العمل وجفف عرقه ، ثم قال لى بصوته الغليظ :

ـ « اذهب يا أستاذ إلى الشيخ ( عارف ) وقل له أن يعطيك حبلاً .. »

يا سلام ؟ ولماذا أنا ؟ لماذا ليس أنت أو ( بكر ) ؟

هذا أيضًا نفس ما رآه ( بكر ) .. فقد صاح فى هستيريا :

ـ « ولماذا لا أذهب أنا ؟ »



قال ( سعد ) فى غلظة وعيناه تفصحان عن الشر :

ـ « أنا منهمك فى الحفر وأنت تساعدنى .. هذا الرجل هو أضعف واحد فينا .. فليعمل قليلاً .. »

كان هذا مهينًا لكرامتى .. لكن كلامه منطقى .. لا جدوى لى إلا كجندى مراسلة أو صبى بقال .. فلأفعل كما قال ..

أخرجت قداحتى ورحت أتحسس طريقى عائدًا عبر المقبرة إلى غرفة اللحاد إياها ..

لحسن الحظ لم تكن المسافة طويلة لأن الرحلة لم تكن بهيجة كما لكم أن تتصوروا ..

لكن الرجل لم يكن هناك .. كانت الغرفة مفتوحة لكنه لم يكن فيها ..

صحت بصوت عال :

ـ « يا شيخ ( عارف ) ! »

تردد الصدى .. ( رف .. رف .. رف .. )

هكذا خفضت صوتى قليلاً وعاودت النداء ..

هذا هو السبب فى أننى لم أسمع الصرخة أو سمعتها لكنى لم أتبينها وسط الصدى ..

صوت حشرجة .. ثم صمت رهيب يغمر المكان من جديد ..

عدت أتحسس طريقى عائداً ..

هناك أرى بقعة الضوء المخيفة التى يسببها الكلوب .. الرهبة والروعة وجهان لعملة واحدة .. هناك رسام هولندى تخصص فى هذا النوع من الإضاءة لكننى لا أذكر اسمه .. هل ( فيرمير Vermeer ) ؟ نعم .. هو .. هو ..

لكن .. أين ذهب ( سعد ) ؟ ما أراه هو ( بكر ) يقف وحده ويرفع الكلوب ناظراً إلى داخل القبر ..

دنوت منه وقد أحرقت القداحة أناملى ، وقلت :

ـ « أين الرجل ؟ »

كان يرتجف كورقة ، لكنه هز رأسه فى ادعاء اللامبالاة وقال :

ـ « لابد أنه يقضى حاجته فى مكان ما .. »

ـ « لم أجد اللحاد .. »

ـ « دعك من هذا .. ولنلق نظرة بأنفسنا .. »



لاحظت أنه مرهق وأنه يعرق بشدة .. كما لاحظت أن ثيابه لم تعد مهندمة .. القميص غادر السروال والبنطال مغبر .. لكننا ننبش قبراً على كل حال ، فلا أعتقد أن الأناقة شىء مهم ..

دنوت مع ( بكر ) من القبر المفتوح وقربنا الكلوب أكثر ..

قال لى وهو يلهث بلا انقطاع :

ـ « أنا أشك فى هذه الصخور .. هل رأيت قبراً محشواً بالصخور من قبل ؟ »

ـ « وهل لديك مانع ؟ »

ـ « لا .. »

قالها وهو يهوى بالرفش على أحد هذه الصخور فيشطره نصفين ..

* * *

لقد انفتح الجحيم ليصب حممه على رءوسنا ..

أين أنت يا ( هوميروس Homer ) لتصف لنا هذا المشهد ؟ أين ( أبو العلاء المعرى ) لينظم لزومياته ؟

إن تلك الصخور كانت حية .. كانت بيروسات مكتملة النمو لكن الغبار يكسوها .. الآن يمكننا أن نفهم كيف تبدو هذه الأشياء .. لا يمكن أن تصفها بدقة مهما حاولت .. إنها متغيرة الأشكال .. لكن لها أكثر من ذراع مخلبية تخرج من هذا الموضع، ثم تغيب فى الجسد لتخرج من موضع آخر .. بسرعة مذهلة .. حركة بروتوبلازمية صاعقة تذكرك بالأميبا amoeba تحت المجهر مع فارق السرعة والحجم .. إن لها عيوناً شريرة حمراء ترمقك فى جشع .. إنها مغطاة بتلك الأهداب الطويلة .. لكنها تستعملها بشكل أو بآخر كل ثانية ..

إنها تركض وتزحف وتتسلق ..

صرخت وأنا أتراجع للوراء :

- « لاتدعها تفر ! »

صاح (بكر) وهو يثب بدوره :

- « اضرب ! اضرب ! »

ورحنا ننهال على هذه الأشياء بالرفشين ..

كان قتلها صعباً .. الأسوأ أنك لا تعرف إن كان هذا قتلاً



أم لا .. ربما هى تفتتت لتعود .. كتلة بروتوبلازمية لن يحدث إلا أن تنقسم إلى نصفين ..

كانت عملية مرهقة واستغرقت وقتاً طويلاً ..

بعضها كان يحاول انتزاع الرفش منى، وبعضها كان يمد مخلبه نحو سروالى .. فى النهاية تراجعت وجلست على الأرض ووضعت القرص إياه تحت لسانى لأننى لم أعد أتحمل أكثر ..

(بكر) يواصل العمل وهو يلهث .. يبدو أن قلبه فى حالة ممتازة ..

قال وهو يلهث ويسترد أنفاسه :

- « لو رأيت هذا المشهد فى فيلم مرعب لاتهمت المخرج بالمبالغة، وغادرت القاعة ساخطاً .. »

قلت له وأنا ألهث بدورى :

- « الفيلم الذى أعيشه أنا لامخرج منه إلا إلى الأبدية .. »

ثم خطرت لى فكرة .. النار .. دائماً ما تبرهن على أنها الحليف القوى لى فى تلك العوالم الرهيبة .. هذه الأجسام لاتموت كما يبدو .. أحدها مقلوب الآن يرمقنى بعينين حمراوين فى حدة، ومن الواضح أنه سينهض فى أية لحظة ..

- « أشعل القداحة ! »

هكذا تناولت الكلوب وأطفأته .. ثم بحثت عن صمامه ورحت أسكب الكيروسين فوق هذه الأشياء ..

صاح (بكر) فى رعب :

- « هذا خطأ .. القرية كلها سترى اللهب وسيأتون جميعًا ! »

- « لهذا الجزء الثانى من الخطة هو أن نهرع إلى السيارة .. بمجرد أن تشتعل النار .. »

وأشعلت القداحة ..

- « استعد .. واحد .. اثنان .. ثلا .... »

ولامست السائل المتناثر على الأرض باللهب .. مزية الكيروسين هى أنه يعطيك فرصة .. لا ينفجر فجأة كالبنزين .. إنه ذلك الخيط الذى يزحف على الأرض .. ثم ينتشر ..

ورأيت هياج هذه المخلوقات كأنها فئران فى سفينة محترقة ، أو الصراصير فى فرن اشتعل فجأة بعد أعوام من النسيان ..

استدرت نحو (بكر) وصحت :

- « هلم .. السيارة ! »



لكننى لم أجده .. لم يكن واقفًا جوارى على الإطلاق ..

ما معنى هذا ؟ هل هذا واحد آخر قد عض التراب كما يقول الإنجليز ؟

بحثت وبحثت .. النار ترتفع .. السماء بدأت تضىء بذلك الوهج البرتقالى .. لابد أن القرية كلها تراه الآن .. لابد أنهم يغادرون ديارهم .. كل منهم يضع الجلباب فوق السروال ذى التكة ويخرج من الدار ..

لابد من أن أرحل .. إن شتى المتاعب تنتظرنى لو بقيت هنا ..

رحت أمشى مسرعًا بين شواهد القبور .. الإضاءة تسمح لى بأن أعرف أين أنا ..

القبر الذى صرت أسعد كلما رأيته كأنه صديق قديم : قبر المرحوم (عبد السلام أحمد شرشيرة) - توفى يوم 10 شوال 1382 هجرية .. هذه هى الفرجة بين الأشجار ..

تسلقت المنحدر وقد بدأ قلبى يخفق كطبل .. إن النيتروجلسرين يؤدى عمله حتى هذه اللحظة لكن من يضمن لى أن .... ؟؟

أجتاز الفرجة الضيقة ..

هذه هى سيارتى واقفة كالشبح فى الظلام حيث تركتها .. ثمة كلب أسود يجلس على ( الكبود ) ويرمقنى فى شك .. لم أبال به ودخلتها وأغلقت الباب .. شعرت ببعض الراحة وأنا أشم رائحتها المميزة وأشعر بدفئها .. برغم علمى التام أننى لن أستطيع أن أشغل المحرك .. لماذا ؟ لأن القصة دائمًا هكذا .. ألسنا فى قصة مرعبة ؟

كرو كرو كرو !

ألم أقل لكم ؟ الكلب أصيب بالهلع فجرى مبتعدًا ..

أنظر للسماء فأرى الوهج البرتقالى من خلف حزام الأشجار .. لابد أن الخبر ينتقل الآن ..

كرو كرو كرو !

– « يجب أن ( تكارك ) ! » قالها لى الأسطى ( خميس ) الميكانيكى يومًا ما .. ولم أفهم هذا الفعل العجيب .. كارك مكاركة فهو مكارك .. لكن الأمر يستحق المحاولة .. فلأكارك ..



– « لاتبالغ حتى لاتشرق السيارة .. »

قالها لى الأسطى ( عرفة ) يومًا ما .. ولم أفهم كيف تشرق العربة ، لكن النصيحة جديرة باتباعها .. لو شرقت السيارة الآن لكانت كارثة ..

كرو كرو كرو .. فروووووووم !

الحمد لله ! شكرًا لكل الأسطوات الذين خربوا بيتى ونهبونى لكنهم منحونى علمهم ..

لا وقت للانتظار .. فلأتحرك .. السيارة جامدة كالصخر باردة كقلب حبيبتك .. لكن يجب أن تلين ..

وانطلقت أعبر هذه المساحات الوعرة .. كنت قد قررت طريقًا أسهل لايمر بالقرية .. لاتنس أن المدافن تكون خارج القرية .. لاضرورة لعبور طرقاتها إذن كما فعلنا لحظة مجيئنا .. لقد صرت أكثر حكمة ..

لم أتنفس الصعداء إلاحين رأيت معلم الطريق الزراعى..

هل تخليت عن ( بكر ) ؟

لا .. لم أفعل .. هو من تخلى عنى .. والسبب لا أعرفه ...

لم يكن الموقف ليصير أفضل لو انتظرت حتى يحاصرنا أهل القرية ..

أنا الآن أحتاج إلى قدر غير عادى من الحظ كى لا ألقى حتفى على الطريق .. النوم يداعب جفنى مع إرهاق وتوتر عصبى شديدين ...

طبعًا تعرفون أننى لم أمت مادمت أمامكم الآن أستكمل قصتى ......

* * *

# ٩ ـ مقدمة لابد منها لفهم القصة ..

وحيدًا فى الشرفة فى السادسة صباحًا أرمق الشارع الخالى ، وأتحسس كوب الشاى فى نهم ..

لا صوت إلا حياة بطيئة بدأت تدب .. لم يكن هناك باعة جائلون فى شارعنا ، وليتهم كانوا .. لاشىء يشعرك بالبكور مثل هؤلاء القوم الطيبين يخرجون مع الفجر ، وكلهم إيمان بعدالة توزيع الأرزاق وأن من خلقهم لن ينساهم ..

يختلف هذا النهار الباسم عن ليلتى الشنيعة ..

بالتأكيد يختلف ...

كنت قد كونت فكرة لا بأس بها عن الموقف .. لسبب لا أعرفه نزف ( بكر ) دمه فوق هذا القبر فى تلك القرية .. هذا القبر كان يحوى بقايا كائن شنيع عاش فى القرية منذ مائة عام أو أكثر ، فأيقظه الدم وتغلغل بشكل ما فى جسد ( بكر ) .. وما حدث لـ ( بكر ) إلا وسيلة من وسائل التكاثر كأى فطر أو نبات .. يبدو أن أسنان ( بكر ) صارت بذورًا تنمو بدورها لتخرج منها كائنات أخرى ..

ولكن أين ( بكر ) من كل هذا ؟

هنا دق جرس الهاتف فاتجهت متوجساً .. مكالمات الساعة صباحاً لاتعنى إلا الموت أو الموت أو الموت ..

- « آلو ؟ »

هنا جاء صوت مرتعش يسأل فى ريبة :

- « د. ( رفعت ) .. هل ( بكر ) عندك ؟ »

إنها الزوجة إذن ، و( بكر ) لم يعد كما توقعت .. لابد أنها وجدت رقم هاتفى فى دفتر الأرقام ..

قلت لها فى كياسة :

- « لا يا سيدتى .. لابد أنه مع أصدقائه .. »

عادت تسألنى بالشك المميز لها :

- « لم يقض قط ليلة خارج البيت إلا حين ذهب لتلك القرية .. هل أنت متأكد من أنه ليس عندك ؟ »

قلت فى شىء من الغيظ :

- « لو أردت تفتيشى فأنا تحت أمرك .. »

هذه كارثة أخرى .. أنا الوحيد الذى يعرف مكانه الأخير ، فلو طالت غيبته لكان على أن أبلغ الشرطة .. وعندها سيضحكون كثيراً وهم يسمعون قصتى عن نبش القبر وحرق محتوياته للخلاص من البيروسات ..



هكذا وضعت السماعة مهموماً وبدأت تحضير الإفطار .. لدى طبق فول فى الثلاجة يعود إلى العصر الأشورى .. لايوجد سمن ؟ إذن هو الزيت .. لايوجد ؟ إذن فليمت ( قيصر ) ..

رنين الهاتف من جديد ..

- « د. ( رفعت ) ! إن الدخان يأتى من الشقة المجاورة ! »

صحت فى حيرة :

- « دخان ؟ هل أنت متأكدة ؟ »

- « كنت أكلمك وأنا أشم رائحة شياط .. ثم خرجت لأتشمم فوجدت الدخان يخرج من تحت الباب .. إن الشقة تحترق ! »

كنت متأكداً من أن هذه المرأة تملك أفضل أنف فى التاريخ .. هذا ما يناسب طبيعتها المتشككة ..

- « إذن اطلبى المطافئ حالاً ! »

- « لا أعرف كيف .. أرجو أن تفعل هذا أنت !! إن أعصابى ..... »

قلت لها قبل أن أغلق السماعة :

- « سآتى حالاً .. فقط أطمئنك إلى أن هذا الدخان يعنى أن زوجك بخير !! »

وضعت السماعة .. لسبب ما اعتبرت هذه المرأة أنني وكيل زوجها .. فلن أستبعد أن تطلب مني إصلاح صنبور المطبخ أو تبديل أنبوب البوتاجاز .. لا ألومها على كل حال .. وطلبت المطافئ .. أعطيتهم العنوان من الذاكرة ..

وفي الطريق إلى داره ، كنت أفكر .. لقد تمكن من الفرار والعودة .. لا أعرف كيف لكنه فعلها .. ومن المفهوم أنه عاد إلى شقة جاره ليتخلص من المزيد من هذه البيروسات .. لابد أنها صارت مريعة بعد تلك الفترة .. كان قد وجد أن النار حل ناجح ، فلجأ إليه ..

عندما وصلت البناية وجدت عربة المطافئ هناك ، وقد احتشد عدد لا بأس به ممن لا عمل لهم .. يأتون من لامكان ويتفرقون في الأثير بعد هذا ...

صعدت في الدرج لأجد المشهد المعتاد .. الماء يغرق الدرج والزحام والدخان ..

باب الشقة مهشم .. ومن الداخل يتصاعد الدخان .. لكن الجزء الدرامي من الموضوع قد انتهى كما توقعت ..

الكل منهمك فلم يهتم بي أحد وأنا أشق طريقي وسط الفضوليين إلى الحمام .. هناك كانت أكثف سحابة ممكنة .. وعلى الأرض تكومت أجسام متفحمة لا تعرف كنهها ...



كل ما توقعته تم حرفياً ..

الآن حان وقت الرحيل قبل أية أسئلة فضولية .. أسئلة من الشرطة أو من الزوجة ..

على الأقل أنا مطمئن إلى أنها بخير ...

* * *

في العاشرة مساء جاءني هاتف منه ..

صحت في الهاتف وأنا أجفف عرقي :

- « أين ذهبت يا أحمق أمس ؟ لم أستطع الانتظار حتى يطير عنقي بأول فأس .. لقد تواريت أنت في أسوأ لحظة ممكنة .. »

قال بصوت بارد لا حياة فيه :

- « لقد تذكرت كل شيء .. وأعتقد أنك تصرفت بشكل صائب .. لكني لا أطلبك كي أطمئن عليك .. أنا أريد لقاءك حالاً .. »

كنت لم أتناول غذائي بعد .. إن الغداء بعد العاشرة مساء عادة محببة أمارسها أحياناً .. لهذا حاولت التملص منه لكنه كان مصراً .. إذن أين نلتقي يا سيدي ؟

حدد لى مكاناً عجيباً بحق .. فى حى (...) القريب من داره .. هناك شارع يدعى (...) فى نهايته يوجد مصنع ثلج مهجور .. لكن بابه الخلفى مفتوح .. يمكن أن نلتقى هناك بعد ساعة !

قلت له فى غيظ :

ـ « هل ستحضر البضاعة معك ؟ »

ـ « أية بضاعة ؟ »

ـ « الأمر يبدو كما لو كنت ستسلمنى حقيبة مخدرات .. »

لم يضحك .. لقد صار عصبياً فى الفترة الأخيرة .. فقط قال لى :

ـ « لا تقلق .. لسبب معين لا أرغب فى أن يرانى أحد .. ثق بى .. وتعال فى الموعد .. »

هكذا وضعت السماعة شارداً ...

طبعاً كان بوسعى ألا أذهب ، لكنى لسبب ما قدرت أنه اللقاء الأخير بيننا .. وعلى الأرجح هو اللقاء الذى سيفسر لى كل شىء .. من أنا كى أرفض ؟ منذ قضيت ليلتى جوار تابوت الكونت (دراكيولا) كى أعرف ، وحتى هذه اللحظة كانت الرغبة فى اكتساب خبرة جديدة هى الشيطان الذى يحركنى ..

ثم من قال إنه سيؤذينى ؟



إنه رجل مصدوم واهن .. أضف لهذا أن تلك اللقاءات فى المصانع المهجورة لا يحدث فيها شىء إلا فى السينما .. لقد أفسدت الأفلام عقلى دون شك ..

وهكذا وجدت نفسى أركب سيارتى وأتجه إلى العنوان المذكور ..

كنت قد حملت كشافاً لأننى قدرت أن الظلام سيكون دامساً ..

بالفعل كانت المنطقة رهيبة .. ظلام دامس .. مجار طافحة تلعب بالنسبة لنا نفس الدور المخيف الذى تلعبه المستنقعات فى القصص الغربية .. كلاب ضالة تنبح ..

لهذا حرصت على أن أقف بسيارتى بالضبط أمام باب المصنع الخلفى كى لا ألوث حذائى ، أو يعقرنى كلب ما ..

ترجلت .. ودلفت من الباب الذى يصلح بالفعل لأحد أفلام المافيا .. المصنع عبارة عن ساحة واسعة مظلمة أمامى .. فى هذه الأماكن يتم القتل فى أفلام المافيا وتوضع الضحية فى الثلج .. لن ألبث أن أرى (جاك الأعور) أو (مارشيللو الأخنف) حاملاً بندقيته ليخبرنى أن الأسرة غاضبة ..

لكن لم يحدث شىء من هذا ..

كنت هناك (بيارات) عديدة فى الأرض .. طبعًا .. مصنع الثلج يجب أن يكون على اتصال مباشر بما تحت الأرض أو شبكة المجارى ... فلأكن أكثر حذرًا ..

مشيت بضع خطوات ثم توقفت ...

توقفت لأننى لم أرغب فى أن أدوس الجثة طبعًا ..

* * *

كان رجلاً فى الخمسين من عمره ، تبدو عليه أمارات النعمة والثراء قبل أن يكف عن ذلك .. وكانت عيناه شاخصتين تنظران للسقف فى رعب .. لكنى عجزت عن تبين أية جروح فى هذا الجسد .. ليس هذا سهلاً وسط هذا الظلام ..

هل رأيته من قبل ؟ إن الموت يشوه الوجوه لكننى متأكد من أننى لا أعرفه ..

هذا هو الكمين إذن .. سوف يضاء المكان ، ويصيح ضابط ما : استسلم يا (برعى) .. المكان محاصر من كل جهة .. لماذا قتلته ؟

للمرة الثالثة كنت مخطئًا .. فلم يحدث شيء من هذا ..



فقط سمعت صوت (بكر) يتكلم ..

رفعت عينى فوجدته واقفًا مستندًا إلى عمود خشبى .. وقد دس يديه فى جيبه وكان يتكلم كأنما هو يحلم ..

ـ « (شكرى أبو زيد) .. مدير لإحدى شركات التأمين سيئة السمعة .. وهو بالمناسبة رئيسى السابق .. »

ثم اتجه نحوى قليلاً فأجفلت .. قال :

ـ « لا تخف .. أنت لست عدوًا لى .. سأحكى لك القصة من البداية .. »

هتفت فى انتصار :

ـ « كنت على حق .. لقد كنت تخفى عنى الحقائق ! »

ـ « أية حقائق ؟ لم أكن أذكر أى شيء عن هذه القصة حتى البارحة .. ولكن لا تقاطعنى .. »

* * *

لأسباب يطول شرحها يشعر المرء فى سن معينة بأنه لم يعش حياته وأنه بحاجة إلى مال وفير كى يعيش .. كنت أنا محاسبًا فى شركة التأمين ، وكان (شكرى) هو المدير ..

ولأسباب يطول شرحها أيضًا التقت ميولنا فى وقت واحد .. أنا ضعيف الشخصية يصعب أن أقاوم إغراء حقيقيًا .. لقد انحرفت .. لم يكن بوسعه أن يعمل وحده ، وكنت أنا أكفأ منه وأبرع ، هكذا استطعنا تلفيق الكثير من حسابات العملاء .. تحايلنا على الدفع للمستحقين .. تلاعبت فى كل شىء وقع تحت يدى .. وبدأت أضع يدى على مال .. مال حقيقى لا يفترسه البقال والجزار والكواء .. وعرفت قدماى الطريق إلى المصرف ..

لكن الفساد له رائحة تشبه رائحة المجارى التى تغمر هذا الشارع .. سرعان ما بدأ التلاعب فى الدفاتر يفصح عن وجهه .. هنا قرر ( شكرى ) أن يلعب اللعبة الشهيرة .. إلقاء بعض الجثث للكلاب ..

تم فصلى بقسوة من الشركة ، وبدا واضحًا أن الأمور ستتطور .. سيدخل البوليس فى اللعبة .. هكذا فى سن الخامسة والأربعين وجدتنى بلا عمل ، مهددًا بالسجن فى أية لحظة .. لم أكن أخشى السجن لكنى كنت أخشى لحظة أن تعرف تلك المخبولة - زوجتى - الحقيقة .. هى التى تشك فى صورتها فى المرآة .. سوف تجن حتمًا .. والطفلة التى لن تجد عريسًا بعد عشر سنوات ؟



لم أكن قد غادرت الشركة خالى الوفاض .. فأنا أحمق لكنى لست معتوهًا .. كانت معى أوراق مهمة .. أوراق تثبت أن ( شكرى ) متورط بالكامل فى هذه القصة .. وهكذا قررت أن ألعب اللعبة كاملة .. اتصلت به وقلت له إننى لن أذهب إلى السجن وحدى .. إن لى عامًا لا أفعل شيئًا سوى البطالة ، وأنا مهدد طيلة الوقت بالسجن .. هذه لعبة لاثنين .. وعليه أن يفعل المستحيل لإنقاذى ..

هنا بدأ الجزء الساذج فى القصة .. الجزء الذى يثبت لك كم أنا أحمق .. لقد طلب منى أن ألقاه فى قريته لنتكلم بعيدًا عن العيون .. ووعدنى بأن يقدم لى ما يرضينى .. سيفعل أى شىء عدا إعادتى للعمل فهذا لم يعد بوسعه الآن ..

قالت زوجتى إننى أبالغ أحيانًا فى الثقة بالناس .. لا .. ليست ثقة بالناس بل أبالغ فى الثقة بنفسى .. وهكذا - بحماقة - ذهبت إلى داره الريفية وقضيت يومى هناك .. كان يحاول إقناعى بإعادة أية أوراق تهدده ، لكنى كنت متمسكًا بهذه الورقة الأخيرة ..

كنت ساذجًا فلم ألحظ عدد الرجال الذى يتزايد فى الفناء حيث جلسنا .. رجال يبدو عليهم الشر .. لم ألحظ النظرات الجانبية التى يصدر بها أوامر صامتة لكل منهم ..

فيما بعد عرفت أنه استأجر بعض مثيرى المتاعب .. مهمة هؤلاء بسيطة جداً .. إقناعى بإرشادهم إلى مكان الأوراق .. كلا .. ليس قتلى لأن هذا سيجلب الوبال على رأسه ..

حينما تنبهت إلى الحقيقة وإلى أننى محاصر بالفعل ، كان رد فعلى حيوانياً .. وثبت وضربت أحد الرجال ، ويبدو أن أحدهم فقد أعصابه فأغمد سكيناً فى صدرى .. لكنى تحاملت على نفسى ورحت أركض فاراً منهم ..

حتى أوصلنى حظى العاثر إلى ذلك القبر المجهول .. وهنا كف الرجال عن مطاردتى .. لقد كانوا يعرفون ..

لابد أننى نزفت كثيراً هناك .. ولابد أن هذا أحيا ذلك الشيء العجيب الذى أشعر به فى جسدى الآن ..

أما ما حدث حين أفقت من إغمائى فهو أننى نسيت تماماً كل شيء عن (شكرى) والمطاردة والرجال .. لم يكن هناك جرح فى صدرى .. كل شيء على ما يرام ..



هكذا عدت من القرية فلم يلحظ أحد .. وجدت أن لدى حساباً فى المصرف فرحت أنفق منه ..

أنت تعرف ما حدث بعد هذا .. لقد استعملنى ذلك (الشيء) للتفريخ .. إلى أن جاء اليوم الذى جئنا فيه إلى القرية .. هنا بدأت الذكرى الغامضة تعبث فى نفسى .. واكتمل كل شيء برؤية (سعد) هذا .. لقد كان من بين الرجال الذين استأجرهم (شكرى) !

* * *

# ١٠- خاتمة ( ولكن أين القصة ذاتها ؟ )

واصل ( بكر ) قصته :

حينما أرسلك ( سعد ) لتحضر حبلاً كان يريد الانفراد بى .. ويبدو أنه كان سينتهى منى - باعتبارى شاهداً خطراً - ثم يأتى دورك ، ورأيته يرفع الرفش وعيناه تتقدان ناراً ..

هنا لم يعد جسدى ملكى .. لقد خرجت تلك الخيوط المخيفة من أنفى وعينى وفمى ، ورأيت مشهداً كابوسياً تم فيه تمزيق ذلك الوغد إرباً فى ثوان .. لقد تناثر كلحم مفروم فى دائرة قطرها متران .. ثم عاد كل شىء إلى وضعه الطبيعى ..

هنا رحت أحاول جاهداً أن أستعيد روعى .. وأعتقد أننى نجحت فى هذا .. وبحركات ميكانيكية رحت أهيل التراب فوق هذه البقايا ..

لقد دافع الشىء عنى لأنه بهذا يدافع عن نفسه .. النسر يدافع عن العش الذى يربى فيه صغاره ..

ثم جاءت لحظة حرق تلك الكائنات .. فى هذه اللحظة شعرت بأننى لا أتحمل .. كل ذرة فى كيانى تنتفض .. كنت أنت مشغولاً فلم تر الخيوط تخرج من أنفى تتحسس هنا وهناك فى جنون ..



هكذا قررت الفرار .. تركتك وفررت ..

تسأل كيف استطعت العودة من تلك القرية ؟ بسيارتك طبعًا ! لقد تطورت كثيراً جداً .. صرت أتصرف ككتلة بروتوبلازم حقيقية .. لا أعرف كيف ولا متى وجدت نفسى ألتصق بقاع السيارة .. لكنى فعلتها .. وعدت أنت بى غير عالم أننى أتعلق بسيارتك من أسفل ...

فى الصباح الباكر عدت لدارى ، وقررت أن أعدم تلك الفيروسات الموجودة فى المغطس .. كنت أمقت هذه الأشياء ، وقد رغبت فى أن أتخلص منها ثم أقتل نفسى .. لا أعرف حلاً آخر ..

كانت عملية الحرق شنيعة ، وقد راح ذلك الشىء فى داخلى يتلوى بعنف .. وفى هذه اللحظة عرفت أنه امتلكنى بالكامل .. لم أعد أرغب فى التخلص منه بل أرغب فى التخلص من نفسى ليحيا هو ! إننى مجرد قشرة رقيقة تحميه من العالم الخارجى وسرعان ما سوف يمزق تلك القشرة ويتحرر ..

لكنى عقدت معه اتفاقاً صغيراً .. أعطانى فرصة واحدة كى أنتقم ممن دمر حياتى ، وكاد يفتك بى .. وقد وافق على أن ينتظر وأن يساعدنى كذلك ..

وهكذا اتصلت بـ ( شكرى ) كما فعلت معك .. طلبت أن ألقاه هنا وحده إذا كان يريد تلك الأوراق .. طبعًا جاء لكنه كان مسلحًا وقد شهر سلاحه هذا من البداية .. وكان هناك رجل آخر يذكرك بالحرس الشخصيين ، لكننى لم أبال بالرجلين .. هجمت .. اخترقت طلقة صدرى وأخرى رأسى .. لكنهم لا يعرفون أن الشيء يعرف كيف يعالج أى جرح فى لحظة حدوثه .. سرعان ما التأمت جروحى ، وكان قضائى على الرجلين يشبه ما حدث مع ( سعد ) ليلة أمس ، وإن كان الشيء قد ترك الجثث سليمة هذه المرة ..

الآن أنا أشعر براحة .. وقد تهيأت لأن ينتهى دورى ..

* * *

كانت القصة معقدة بالفعل .. فيما بعد سأحاول استيعابها وفهمها .. لدى أسئلة كثيرة لكن أهمها هو :

ـ « هل تعنى أن داخلك .. ما يملؤك من الداخل الآن هو الشيء ؟ »

ـ « نعم .. كل خلية وكل تجويف من جسدى .. »

ـ « وتلك الفيروسات التى تتساقط منه طيلة الوقت ؟ هل ستنمو لتصير مثله ؟ »



ـ « نعم .. ما يبقى منها حيًا ولم يحترق .. إن أكثر ما يلهب حماس هذه الكائنات ويجعلها تنمو بسرعة يمكنك رؤيتها ، هو شعورها بالرعب البشرى .. التوتر البشرى .. الخوف .. القلق .. الشك .. لا أدرى إن كان تحليلى دقيقًا أم لا ، لكنى أعتقد أن الرعب الذى شعرت به لحظة المطاردة فى تلك الليلة هو الشيء الذى جعل هذه البقايا تتحرك .. من يدرى ؟ لربما نادانى نداء صامتًا كى أسقط فى تلك البقعة بالذات ! »

هنا بدا لى هذا منطقيًا .. الفأر المذعور الذى وضعه د. ( حسين ) جوار الخيوط فى تلك الليلة .. فقط استدار ليصنع بعض القهوة ثم عاد ليجد أن الفأر مات ، والمنضدة مغطاة بالخيوط .. جو بيت ( بكر ) مع تلك الزوجة القلقة المذعورة .. هل يوجد جو أكثر ملاءمة للنمو كان ينمو بالخوف ؟

صاح وهو ينظر إلى السقف :

ـ « انتهى الأمر ! اعتن بأسرتى يا دكتور ( رفعت ) !! »

ـ « عم تتكلم أيها الأحمق ؟ »

كان الظلام شديدًا .. ضوء الكشاف لم يحسن الأمور كثيرًا .. لهذا لم أتبين تفاصيل ذلك المشهد الشنيع .. لكننى

تخيلته فى ذهنى .. ( بكر ) يمزق القشرة الرقيقة والشىء يتحرر .. شرنقة آدمية عملاقة تخرج منها فراشة مخيفة .. لن أطيل الوصف لأننى أمقت الرعب المعوى ، لكن كيف تصف رجلاً يمزق جسده كى يتحرر كائن بروتوبلازمى مكسو بالأهداب ، ما لم تصف ذلك فعلاً ؟

صحت فيه :

- « انتظر يا أحمق ! إن الطب قد ... »

- « فات الأوان .. »

قالها ومزق آخر ما كان يرمز له كبشرى ، وفى اللحظة التالية رأيت الشىء للمرة الأولى كاملاً .. يصعب أن أصفه لأنه أقرب إلى كتلة هلامية عملاقة بارتفاع قامة الإنسان ، ومغطاة بالكامل بتلك الأهداب .. إنه أقرب إلى واحد عملاق من تلك الفيروسات التى كنا نقتلها عند المقبرة ..

وقبل أن أفهم ما يحدث كان قد انساب بنعومة لا تصدق .. إلى أين ؟

إلى تلك ( البيارات ) المنتشرة فى الأرضية .. لقد غاب فى شبكة المجارى ببساطة ..



لم أصدق أن هذا حدث إلا بعد ربع ساعة ظللت فيها واقفًا أرمق المشهد بغباء ، وحين ثبت إلى رشدى عرفت للمرة الأولى أننى وحدى .. وأن هناك الكثير من الظلام وجثتين ...

يجب أن أرحل من هنا حالاً ..

* * *

قالت الزوجة وهى تقدم لى قدح القهوة :

- « سيجدونه .. لا أعرف كيف لكنى أشعر أنه حى .. »

كنت أنا أملك الإجابة الكاملة .. لكنى بالطبع لن أستطيع الكلام .. هل أخبرها أن زوجها كان قشرة ، وأن جوهره الحقيقى موجود الآن فى شبكة المجارى ؟

طبعًا لا مجال لهذا هنا .. دعها تعش فى وهم الزوجة المخلصة التى اختفى زوجها لكنه سيعود ..

ومن قال إنه لن يعود ؟ الشىء موجود تحت هذه المدينة .. ويوم يحدث انسداد فى شبكة المجارى ، فربما يكون هو أول ما يجده عامل غافل .. هل يخرج يومًا ما من مغطس منزلى ؟

كل هذه أسئلة تثير الذعر .. لكن لا جدوى منها ..

لقد كان الشىء موجودًا من دهر ، ولا يوجد ما يمنع أن يظل كذلك ..

قالت لى الزوجة وهى تحك شعرها :

- « أحيانًا أشعر أن الرعب سيطير صوابى .. القلق .. »

- « هل تتعاطين الأقراص المهدئة التى كتبتها لك بانتظام ؟ »

- « نعم .. نعم .. »

سمعت صوت طفلة فى الصالة ، فصاحت الأم تناديها أن ( سلمى على عمو ) ..

كانت هذه ( دينا ) .. الأب كان وسيمًا والأم - برغم القلق الذى شوه ملامحها - لاتخلو من جمال ذابل ، لهذا كانت الطفلة ذات الثامنة دمية حقيقية ..

دخلت ( دينا ) حاملة قصة أطفال للتلوين ، وقلمًا فارغًا .. ونظرت لى بحذر ، ثم همست بصوت مسموع لأمها أن .. وش .. وش .. وش ..

صاحت الأم فى عصبية :

- « الهمس عيب .. تكلمى بصوت عال .. »

- « أريد قلمًا آخر .. هذا قد نفد .. »

- « ليكن .. سأبحث لك عن واحد .. »

ثم وضعت يدها على كتف الطفلة وأشارت إلى أذنها وقالت :

- « أعتقد أنها مصابة بعدوى فى أذنيها .. هل تفهم فى أمراض الأذن يا دكتور ؟ »



وضعت القدح وابتسمت .. يصعب على من يجلس مع طبيب ألا يبحث عن أى شىء فى جسده أو جسد طفله ليسأل عنه ..

- « فى الحقيقة لا .. لكن بوسعى أن ألقى نظرة .. »

دنت منى ( دينا ) ووقفت .. كانت مذعورة متشككة .. هذا طبيعى لأن العصاب ينتقل كأى مرض معد آخر ..

أبعدت خصلات الشعر الأحمر الناعمة ودققت النظر ..

من ثقب كل أذن رأيت تلك الخيوط الزرقاء الشفافة .. قصيرة جدًا لكنها موجودة ....

وارتجفت ..

لقد انتقل الشىء إلى أشياء عديدة ، وأشخاص عديدين .. لكننى نسيت تمامًا أن لـ ( بكر ) زوجة وابنة .. فمن أحق بالتقاط هذه الخيوط المريعة منهما ؟ هذه ضربة تحت الحزام لكنها برغم هذا عادلة .. حين تنسى النمر الواقف خلفك فهذا لايعنى أنه غير موجود .. هذا خطؤك أنت لاخطأ النمر ..

غادرت الشقة لا أعرف أين الباب ، ولا كيف كانت القدم تنثنى أثناء المشى ..

ماذا أفعل ؟ ماذا أقول ؟

هل أنصح بإعدام الطفلة والأم ؟ عسير أن أشرح لهما القصة كاملة .. عسير أن أشرح لأى مخلوق ..

سأطلب رأى أحد أطباء الأنف والأذن وأدعو الله أن أكون أحمق .. وأن تكون هذه مجرد عدوى فطرية ..

لقد ازداد عبء ما أحمله على كاهلى من أسرار حتى صرت مرهقًا فعلاً ...

كانت لى قصة أخرى مع الشيء أو بقايا الشيء .. ربما أحكيها لو طال بى الأجل ، لكنى - بالنسبة للحظة الحاضرة - أعتقد أننا اكتفينا من الخيوط والبيروسات .. فلنتوقف هنا .. أرجوكم أن نتوقف هنا ..

كان صندوق ( بندورا ) ينتظرنى ..

من يفتح صندوق ( بندورا ) يدفع الثمن غاليًا .. لكن كل الدلائل تقول إن هناك من فتحه ..

ولكن هذه قصة أخرى ...

د. رفعت إسماعيل

القاهرة